مررت من خلالي.. ولكن!

الكتاب: مررت من خلالي.. ولكن!

المؤلّف: باسل محمود النادر

التصنيف: رواية

تصميم الغلاف: حسن العربي

تنسيق الكتاب: نغم عرنوق

التدقيق:

الطبعة:

المقاس: 14 × 20

رقم الإيداع: 2022/1963

الترقيم الدولي: 978-977-6907-74-4

بالتعاون مع دار المصرية السودانية الإمارتية

الناشر: دار الكتابة تجمعنا لنشر والتوزيع

المدير العام: حسن محمّد حسن

المقر: الاسكندرية - صلاح الدين ش 8 الهدى

رقم الهاتف: 01066476589

فيسبوك: https://www.facebook.com/Wriiiter/

البريد الإلكتروني: elketabategmna@gmail.com

مررت من خلالي.. ولكن!

رواية

باسل النادر

هذه الرواية ليست لك.
إن راودتك نفسك أن تقرأ ولو قليلًا..
أطفئ النور؛ فالقلب لا يضاء بالشمس!
والشعور الذي لم تصفعه التصرُّفات،
لن تصل إليه الكلمات!
أكرِّر لا تقرأ هذه الرواية.

الإهداء

مهداةٌ إلى التي أخذت كلَّ ما هو مستحيلٌ،
وعلَّمتني أنَّ المستحيل مجرَّد احتمالٍ لا أكثر..
كي يكون للكلام بقيَّةٌ
إلى التي آثرت تعليمي ولا تعرف القراءة،
ولن تسمع صوت بوحي حين أتلو هذه الأبجدية.

❖❖❖

شخصيَّات هذه الرواية ليسوا محضَ خيالٍ أو وليدي أفكار، إنَّهم أشخاصٌ عاشوا بيننا.

رأينا ما حلَّ بهم، وكيف تحوَّلت حياتهم من لونٍ إلى لونٍ، يجتمعون في أشياء مشتركةٍ، متفرِّقين ومفترقين في أرضٍ واحدة.

أحيانًا قد يكون الموت ولادةً، والحياة مماتًا، بالأشياء الصغيرة التي تموت فينا بعد مدَّةٍ وجيزةٍ من الولادة.

كقارئٍ أكون بين نار الحبِّ ونار الحياة، نار الحلم ونار الألم، نار التمنِّي ونار الحنين .

تعيشنا كما تموت فينا دون بوحِها؛ لأنَّها موجعةٌ بقدرٍ كبيرٍ، مشابهٍ لجمالها.

فالحبُّ الذي نعيشه بكلِّ قوانا، نبحث عنه دائمًا.

الحبُّ الذي يجعل للفراشات معنًى، وللزهر لونًا، وللعمر لذَّةً.

لطالما أردنا أن نحيا حياةً جميلةً، حلمنا بها.

ها نحن نكتب، ونقرأ، ونحاول العيش!

مثل جميع القصص الحقيقيَّة، التي تموت مع أصحابها، قصَّتنا لواقعيَّتها، شفافيَّتها، أو غالبًا لوهميَّتها (على هذا الورق) ومدى طيب نعوها، لا يمكنني البوحُ بغالب تفاصيلها؛ أكثر ما فيها لا يُفهَم!

وأنا كحالِ من يُحلِّق بين طلع الربيع جاهلًا سيره، التفكيرُ في خضمِ الحكاية يربكُ حواسي، يستعصي على العقل تفهمه، أو ولوج ماهيَّته!

تمنَّيتُ أن تَنعينِي كما الآن أَنعيكِ.

تكتبين وصيَّتي بعد الخلود إلى أحقيَّة البرزخ.

تمنَّيتُ أن تبكيني كما أبكيكِ، فالكلماتُ بكاءٌ من نوعٍ أعمق، لحكايةٍ يُحيَا عبقها، كأنِّي أثير الحريق مرةً تاليةً في الذاكرة.

دومًا ما أعرِّجُ على بدأتُه، وألوذُ بالفرار عن شيءٍ بدأتُه، فلا أنهيه، هو الخوف من البوح بالحقيقة، لا سيَّما أنَّ الحقيقةَ تمتلئُ مرارةً لا يقلُّ مفعولها عن الواقعِ في غيابكِ.

وقد بدأتِ من غيابٍ، وها أنتِ في غيابٍ، تموتين داخلي كلَّ مرَّةٍ

أعيدكِ إليَّ. تستنشقين نفسي، وتتكلَّمين بفمي، إلَّا عينيَّ؛ هي فقط منِّي، كي تبكي.

آهٍ من واقعٍ نعيشه ولا نتمنَّاه، حبٌّ نتقاسمه ولا نبني ثراه.

آهٍ من كلِّ الفصول؛ فلكلِّ فصلٍ وجعٌ يسحق ما سبق، لأنَّه الأعمق.

آهٍ من أعينكِ المارَّة، التي أراها في كلِّ وجهٍ، تبتسمُ لي فأبكي غيابها، أبتسم لها وتطوي الصفحة بفرارها، كما ألوذ بالفرار عن أحقيَّتها في الوصمة المارَّة في حضور.

كما أسلفتُ، كأيِّ قصَّةٍ حقيقيةٍ يموتُ أبطالها، حزنًا وألمًا، نحن نعيشُ بعد الهلاك على ذكريات ولَّى زمنها.

عجوزٌ يتذكَّر الشبَّان، مغتربٌ يحنُّ إلى البلاد.

فمريم، لم تكن يومًا عاديَّةً عندي.

مريم، المرضُ الصحيُّ الوراثيُّ؛ يُكسبني المناعة، يهبني القوَّة، عبرتي وسبيلي لأكون غير ما كنتُ، جاهلًا، أو مراهقًا، أو عصيًّا.

المرض الذي تتمنَّى وجوده، تتمنَّى حضوره، حتى لو في صورةٍ معلَّقةٍ على جدار بيتٍ مهجورٍ.

❖❖❖

قبل رؤيتكِ كُنتُ خائفًا لدرجةٍ كبيرةٍ من الفقد؛ فالحبُّ العظيم يملك فرصةً كبيرةً للفقد الكبير..

أرتجفُ إن أتت دقَّة حبِّكِ على قلبي، ودكَّت الحرب أسواره.

الأسودُ يسير بفعلته نحو شغفِ القلب، يحتلُّ موطنًا كاملًا، ويسلبُ ثروةَ الجسد من عقلٍ ويدٍ، وروحٍ ونبضٍ! حتَّى الكلمات تُنهبُ كثروةٍ وغنيمةٍ!

لطالما كنتُ مكسورًا أمامك، أن تكون ضعيفًا أمام الأنثى، فهي قوةٌ من نوعٍ فاضلٍ، لأنَّ النساء ضلعٌ رقيقٌ، يحملن المؤن إلى ذواتنا؛ فهنَّ المأكل في عجاف السنين، البستان في مدنٍ متحضِّرةٍ، الملفى في بلاد المنفى...

لم نحظَ بفرصٍ لنلتقي مرارًا؛ كانت المصادفة نادرةً، لكنَّها انتقت ما حبَّذَ القدر، بأن نصنع سهمًا منصفًا بين حاجياتنا الإنسانيَّة، ونسير ببطءٍ مرتفعٍ نحو ذروة العشق، طفوليٌّ كان أم عذريًّا في كلتا الحالتين كان صادقًا، ربَّما لمسافةٍ من الزمن!

❖❖❖

الاسم المرتبط بالوطن، يُحمَلُ على الجبين مهما كان كاسرًا أو مكسورًا؛ في الحالتين يشكو الأمل .

الشكُّ يأتي ويذهب، ربَّما اقترب، ربَّما لم يكن ليقترب!

يتكوَّن في لحظةٍ شريدةٍ، حين الشرود في الأنجم والفضاء الفسيح، الذي يحوي آلام البشريَّة.

مع كلِّ نجمِ نيزكٌ، وفي كلِّ قلبٍ نقطة ضعفٍ.

لهذا أنتِ يا مريم، الضعف الأكبر القويُّ، الذي جعل نورًا لنور عينيَّ، ومحطَّ نظرٍ يُسيِّر وجهتي إلى المجهول، واضعًا بالظلال كلَّ ما أنا بحاجةٍ له.

حاجتي لك:

حاجة اللغة إلى الكلمات...

حاجة الوطن إلى التضحيات...

حاجة الحبِّ إلى الأمنيات...

مريم: سيِّدة العشرين ربيعًا، النابعة من كنف الحُلم، الموصودة بالشهب ملء جناحيّها، عصفورة القفص المذهَّب، المولودة الشاميَّة المرتبطة بالعادات العربيَّة الشتَّى.

الأب: شيخٌ كبيرٌ في المال، بالغٌ في الدين، قادرٌ في أمورٍ عديدةٍ.

الأم: تحمي مدلَّلتها الصغيرة، بعد الابنة الأولى -عائشة-، كلامها يجوب في القبول، رأيها دائمًا (نعم)، طويلةٌ فاتنةٌ؛ لهذا كان لمريم هيئةٌ منزَّلةٌ، وجهٌ دائريٌّ، يزاود الثلج في بياضه .

الأعين السوداء مشبعةٌ بالليل الأصيل، تحمل حمامتين إذ ناظرتها شاردًا؛ لا تكفُّ البدء بأخذ حبَّات الرمَّان، فيتحوَّل اللون أحمرًا ورديًّا مفعمًا بالخجل، الشَعر يساعد الليل في هبَّة الهدوء ورونق التفسُّح في فضاء الشِعر، والكلمات.

وردة تتفتح شيئًا فشيئًا على الحياة، تُقاوم الأكوان كي تخرج.

الجسد نحيلٌ يميل إلى القطعة الذهبيَّة، التي تستدلُّها عليها من شعاعٍ يعكس نورها؛ لتوقن أكثر أنَّها الشمس، تحتويها بكلِّ تفصيلٍ في الجسد، حتَّى الروح المفعمة بالسكينة والجلال، ما إن حضرت

أعطت حياةً لشجرٍ جسديٍّ.

هادي: متوسطُ الطول، ذو العشرين عامًا، من عائلةٍ جنوبيَّةٍ تابعة لسهل حوران، أسمر الوجه نحيل الجسد، مزاجيٌّ هادئ الطباع، قليل الكلام والاختلاط.

حلمه أن يصبح طبيبًا، لكنَّ القدر شاء أن يكون مهندسًا زراعيًّا، دون أدنى تفكيرٍ منه؛ لما مرَّ خلاله قبيل الامتحانات النهائيَّة للشهادة الثانويَّة.

المحبُّ للشعر والتلاعب بالكلمات، إذ يجعلها كسنبلةٍ يلتئم إليها النسيم، وتتباحث معها الفراشات خلال الربيع أسرارها، ذارعةً التكشُّف بطريقها، والبحث داخل الأحرف عن لغةٍ قد تتكلَّمُنا وتُجيدنا، دون أن نضع لافتةً على زجاج الباب (مغلقٌ حتَّى إشعارٍ آخر).

❖❖❖

أنس: الرجل الذي داهمته الحياة؛ لتجعل الفقر مرتعًا له، فما كان إلَّا أن يستغيث بالجري تحت وابل المطر، يتبارك من حُسنها في إدارة سبل الحياة. يتدبَّر معيشته بالعمل إلى جانب الدراسة.

مصيرُ الحالم الكدُّ ليبلغ مبتغاه؛ فكيف لعائلةٍ قرويَّةٍ لا تملك قوت يومها -أي الحدُّ الأدنى للإنسان من مأكلٍ ومشربٍ- أن تؤمِّن حاجات ابنها؟

لكنَّ ذلك لا يمنع الأب المسنَّ (أبا أنس) من العمل؛ ليرى ثمرةً ناضجةً من ضلعه تبتدئ الحياة، وتسطِّر أولى رايات النصر ببلوغ ابنه الجامعة.

كان ذلك يومًا جليًّا في عائلة أنس، دون الحاجة للدروس الخصوصيَّة؛ فقط نتيجة المدرسة الحكوميَّة الثانويَّة الموجودة في قرية البيضا. أجاد أنس عن طريقها أن يصبح طالبًا في كليَّة الهندسة الزراعيَّة.

خصال الابن تمتدُّ من هيكل الأب، لا سيَّما الكفاح، مع أنَّ الأب كان انتصاره بعيدًا؛ فهرع للاستسلام بعد إتمام المراحل

الدراسيَّة؛ ليظلَّ مزارعًا بسيطًا يقتات على ما قسمه الله له، راضيًا وشاكرًا نعمه. هذا لا يمنع أن نسير في الطريق الموغل، ونقاوم الفقر، نقفز بعد حفرَ عدَّةٍ نلقاها في دروبنا.

❖❖❖

أنس: صباحًا في الجامعة، وعصرًا يعمل نادلًا بمطعمٍ قريبٍ من مكان غرفته المستأجرة في ساروجة.

حاجته إلى العمل، هي حاجة صديقه هادي؛ فعمد أن يكون مجاورًا له في العمل، الصديق يبدو لنا من البداية، إذ يقدِّم الخير والعون دون أيِّ مقدِّماتٍ، المؤنس في أيَّام الوحدة، الرفيق في ظلام الليل، والعين التي تُبصِر من خلالها الجوانب والأرجاء.

ما قدَّمه أنس كان خير دليلٍ، وفضلًا زرعَه داخل هادي الذي شاركه المكان المستأجر، وقدَّم العون بتوفير فرصة عملٍ لهادي دون تفكيرٍ؛ بل الرغبة جاءت قبل الطلب، ولم يكن هناك عرضٌ أساسًا.

الحياة لا تعلِّمك إلَّا أن تقدِّم رغم فقرك، ما تجاهد الحصول عليه، لكنَّك في الوقت نفسه، إن حصلت عليه؛ تأبى ذاتك أن تصارع إحساس الفرح وحدك، بل تقدِّمه لمن حُرم منه مثلك.

الصداقة والحب وجهان ينتميان لبحرٍ واحدٍ.

الخير منك إن كان معي، والخير لك إن كان ملكي.

صحيحٌ أنَّ الغنيَّ، غنيُّ الخُلق والدين، لكن هناك وسيلةٌ أيضًا

لممارسة الحياة، كشراء رغيف خبزٍ، قطعة شوكولا لابنك حين تعود من العمل، المادَّة ضروريَّةٌ كي لا يزأر الفقر جوانبك؛ وتصيبك لعنة الحسرة، مثلما أصابت السوريَّ الذي انتحر، نتيجة الغلاء القاسم ظهره، فخاس بعين نفسه، وندم، لأنَّه قصَّر بحقِّ أسرته، ولجأ للانتحار.

ربَّما نختار الطريق الخاطئ، لأنَّنا ذوو نفسٍ بشريَّة تخاف الصبر، فالشابُّ السوريُّ بعد انتحاره، ترك خلفه عائلةً بحاجة له.

على الرغم من عيوب الفقر، فما آل إليه تحوَّل إلى مصيبتين :

الفراق، والفقر!

❖❖❖

الفصل الأول

هادي:

في السنة الأولى، لم تعطِني الحياة فحواها، يبدو أنَّ جسدي في غيبوبةٍ نشطٌ، دون تفكيرٍ أو إسرافٍ بما آلت إليه الحياة.

هذا الحال خلال الأشهر الثلاث الأولى، حتَّى تبدَّل شيء ما بمرور مريم، لم أعلم اسمها في ذلك الحين، شعرت بشيءٍ ينبض داخل صدري، كأنَّها المرَّة الأولى التي أتحسس فيها أنَّ لي قلبًا! عكس العادة، لم يكن لديَّ رأيٌ جازمٌ بالنظرة الأولى، حتَّى اللحظة التي آمنتُ بها، كأنَّ روحي التقت هذه الفتاة في عالمٍ آخر، المكان ذاته، إنَّما زمانٌ آخر.

أعرف هذه الروح المارَّة أمامي، جفلتُ فجأةً، إذ توقَّف جسدي عن العمل، عيني تتلمَّس المارَّة أمامها.

للحظاتٍ تغيَّر عمَّا كان قبلها لسنواتٍ.

أيُعقَلُ خلال رعشةٍ واحدةٍ لأجزاء النبضة، أن يتبدَّل كلَّ شيءٍ

من حولك؟ ترى المعالم من حولك، وقد غيَّرت فستانها، احتفاءً بما تحوَّل إليه النبض.

أَيُعقَلُ! للحظة التي لا نُلقِي لها بالًا، أن تتغيَّر حياةٌ كاملةٌ كالحلم، كالحبِّ.

تحوِّر ما فيك لتجعلك شخصًا تجهله، تُبرِزُ الصفات المثلى من رزانةٍ، رتابةٍ، أناقةٍ، حتَّى ساعة اليد، تلقِي لها بالًا!

لون أزرار القميص، الذي لا بدَّ من أن تخترقه الأشعة، وتتحسَّس العطر، الذي استنشقه.

شيءٌ ما غريبٌ رأيته داخلها، شيءٌ غريبٌ أخشاه في الوقت نفسه! راق لي التغمُّس داخله، واكتشافه.

قد يكون الغموض وسيلتنا للغوص داخل الحكاية أكثر. مشاعري تلفَّظت، وقلبي نبضٌ، وروحي علا نسُمها.

النظرة الأولى التي أودت دون أيِّ إفادةٍ، أن أسلم داخلي إلى المجهول المارِّ أمامي، دون إعارة النظر بالسبب المودي لذلك.

أترقَّبها، أنغمس داخلها، لأحفظ تفاصيل شكلها، وأتعرَّف

صفاتها، آيةٌ نبيلةٌ بطهر الغيم الساكن في السماء.

عينُ المُحبِّ حين تنظر، وإن رأت عيبًا أحبَّته، وزادت من تجميله، ليبدو حسنًا، مثل السماء الصافية وإن تخلَّلتها غيمةٌ شاحبةٌ، تظلُّ محتفظةً بجمالها. الحبّ ليس أعمًى، الحبّ مُطهِرٌ لأيّ خللٍ قد يكون: الجنون، الغيرة، التملُّك، الخوف، محبَّذةٌ موجودةٌ في أيِّ حبٍّ، ودونها؛ لما كان حبًّا!

خلال أشهري القصيرة، تعرَّفت على أنس، ذو خدَّين واضحين، أبيض البشرة متوسِّط القامة، هادئٌ، من عائلةٍ أقلُّ من متوسِّطة الحال، كما أغلب أهل هذا البلد.

لا تخلو أيَّام جامعتي من أنس، ولا تخلو من الأحاديث، ملازمٌ لي وصديق دربي، حتَّى زاد الرابط بيننا إلى صداقةٍ أعمق، إذ عرض عليَّ الاستئجار معه في منطقة ساروجة، القريبة من شارع الثورة، لأوافق على طلبه.

أراقب مريم من بعيدٍ.

مراقبتكِ عملي اليوميُّ الجامعيُّ، وواجبي الوظيفيُّ، لامرأةٍ

واضحة الملامح، مجهولة الاسم، رائعة الأخلاق كما يبدو لي، وكما تجتبيه روحي!

يمينيةُ الكتابة، قليلة الكلام، خفيفة العلاقات، هادئة الطباع، أنثويَّةٌ إلى الحدِّ، الذي لا أنوثة بعده.

المشابهة للمكان الذي تدرسه في كليَّة الهندسة الزراعيَّة، حيث شجر السرو المحيط بأسوارها، الأزدرخت البري الواهب لذَّة الظلِّ، أشجار التوت في موسم الربيع المخضرَّة المنقطة احمرار ثمر حبَّات التوت الشاميِّ. أوَّل اللقيا بالتقاء الأعين بين هادي ومريم، أوَّل المجامع الواضحة.

السماويُّ لون هادي المفضَّل، مع نظَّارةٍ طبيَّة تكسو العين السوداويَّة الحادَّة.

الرماديُّ الطويل يحمي عرش الأنوثة الدافقة. يهطلُ على البال مطرٌ من الذكرى، إذ تتمايل مريم على استحياءٍ. أرصدُ القدم اليمنى تخطو بدايةً مع فوح ريحان اليد الشمال، ونظرة يساريَّة نحوي.

تبوح للرقص أوَّل عيدٍ لموسم الحصاد، التوت الشاميُّ آثر في

الحفلة البدائيَّة، فكان ناضجًا، تظلِّلكِ أوراقه، كما تظلِّلين روحي من الألم!

أخذتنا الحياة سريعًا، نقترب من تحيَّةٍ عابرةٍ إلى لقاءٍ يوميٍّ، أعترفُ بحبِّي نتيجة الأفعال، والنظرات البادية الواضحة، أكثر من عالم يدميه الظلام، ما إن تتحرَّك شفتيكِ، يبدو العالم برزخًا أنضجًا. شيءٌ ما يساورني عن نفسي، يتحدَّث عمَّا في داخلي خلال كلماتكِ، حديثكِ وصوتكِ، إيماءات جسدك ورجيف روحك.

الماضي كنايةٌ عن هذه الأيَّام.

لحظاتُ اللقاء غير المنتهية في ذاكرتي، تتكرَّر من زاويةٍ أخرى غير التي رأيتها من ذي قبل.

نمشي الهوينى عائدين إلى البيت، أنا إلى غرفتي المستأجرة مع أنس بساروجة، وأنتِ في بيت أبيكِ الجديد بركن الدين.

طريق العودة حافلٌ دومًا بيننا، يحمل أشياء جمَّةً، كأوَّل كلمة أحبُّك الخارجة متقطِّعةً:

ب... ح... ب... ك.

مرتبكةً متوتِّرةً من شفاهي، تتناقص الأنفاس كأنَّني للمرَّة الأولى أنطق، يرتفع ضغط الجسد تزداد الحرارة، حريقٌ يشتعل لا حاجة إلى سيَّارة الإسعاف، تلك التي أسعفت سواد أجساد الحريق ذات مساء، في إحدى بنايات شارع الثورة.

الناس مجتمعون كانوا مذعورين، أو أنَّهم ينظرون إلى حفل!

الغريب في الأمر أنَّ الموت صار عادةً، والجمهور السبَّاق وقتها قبل سيَّارة الإسعاف والنجدة لإخماد الحريق، أحد الناظرين أعطى سببَ التأخُّر للحواجز، والآخر قال لغياب السائق، أمَّا أنا وأنتِ أكملنا الطريق حينها،

فقد كفكف صراخ صاحب البندقيَّة:

بعدوا من هون؛ خلينا نعرف نشتغل.

وجه الخلاف بين حريق كلمة أحبُّك الأولى، والحريق هذا: هو أنَّ حريقي نفض الروح في الجسد، فبثَّ الحياة، أمَّا الحريق ذلك فخرابٌ!

منذ البداية أرخَت السنوات، ودارت الأيَّام، وجمعت الليالي نجمةً نجمة.

لم تتفوَّهي بأيِّ كلمةٍ، الصمت طقسك الدائم الغالب، نظراتك خجولةٌ، سؤالي: وأنتِ يا مريم؟ فضوليٌّ فوضويٌّ.

....

تنظرين إليَّ محمرةً ذائبةً كثلجٍ ينساب من أعلى تلٍّ إلى أسفل وادٍ، ثُمَّ تعاودين النظر للأمام.

أكرِّرُ سؤالي.

الوجنتان تجيبان باحمرارهما، والعينان في غفوةٍ خلف الزمن، أمَّا اللسان لم ينطق، فعمَّ الصمت حتَّى الوصول إلى محطَّة بيتكِ.

غدًا، نكمل حكايتنا.

لا أخفيكِ كم أصابني الذعر بعدها، التساؤلات كثيرة، تراها لا تحبُّني؟ لو أنَّها تبادلني الشعور ذاته لكانت قالت، تكلَّمت، أو رفضت. ربَّما ما أرادت توبيخي، والإجابة بلا تتبعها حججُ وأقاويل الصحبة، الزمالة في الدراسة.

كان الليل طويلًا رماديًّا إلى حدٍّ كبيرٍ، شعورين متضاربين: أحدهما أنَّني بُحتُ بها في داخلي، أمَّا ثانيهما، الخوف من الرفض الذي زاد احتماله سكوتك، وانسحابكِ، قرب البيت.

يعود هادي إلى غرفته في ساروجة، والنار تلفظ داخله. لا شيء يخفِّف ما اقترفه إلَّا صديقه، أنس الشريك.

أنس: ألم تعطك جوابًا؟

يسألُ بترقُّبٍ بعدما سرد هادي له ما حدث.

هادي: لم تقل أيَّ شيءٍ.

انتظر قليلًا، لا بدَّ من أن تتكلَّم، وتقبل.

- لو أنَّها ستقبل لتكلَّمت.

وعلامة الخيبة تعتلي الحاجبين العابسين.

- لو أنَّها لا تحبُّك يا هادي، لم تسمح لك بالتكلم بهذا الشيء.

أن تصمت وتأخذ وقتًا أطولًا، لا بدَّ من أنَّها تحاول اختبار حبِّك لها ومدى صبرك.

- لن أقترب منها غدًا.

يكمل أنس فكرته معلِّلًا:

- لا يجوز أن تكرِّرَ مريم كلمة الحبِّ في اللحظة ذاتها؛ بل تجعله يمتدُّ منها شيئًا فشيئًا إليك.
- هذا يعني أنَّها تحبُّني؟
- الدلائل تقول هذا. دع الأمل قائمًا، والدليل صمتها.
- أملٌ في صمتها!!!

يقولها باستغرابٍ

- أليس أفضل من أن ترفضك؟

يصمت هادي، يبدو أنَّ كلام أنس صحيحٌ، السكوت أفضل من الرفض صراحةً.

❖❖❖

في اليوم التالي..

هادي وأنس في مخبر الكيمياء العامَّة، الساعة 8:30 صباحًا، حيث اعتادا الجلوس آخر القاعة.

هادي كثير التململ والحركة في أثناء أيِّ محاضرةٍ، أمَّا أنس فكان مجتهدًا، إذ كان يحمل قلمًا ودفترًا يدوِّن ما يسمعه من فيهِ الدكتور الجامعي.

يشيح هادي بنظره إلى الحاضرين، ويناظر مريم بين الفينة والأخرى، وسط تساولاتٍ عالقةٍ في ذهنه، متحدِّثًا في سرِّه: لن أقترب منها اليوم؛ لا أظنُّ أنَّها تحبِّذ الحديث معي، ها هي تكتب، وتجلس أوَّل مقعدٍ مع زميلاتها، وكأنَّني لستُ هنا .

يقطع أنس شرود هادي مخاطبًا :

- حان وقت الخروج للجلسة التالية.
- الحمد لله.

انتهت أوَّل جلسةٍ، وتبقَّى اثنتان.

- متى ينتهي هذا اليوم المتعب؟ لا أريد الحضور اليوم.

يسأله أنس، وهما متَّجهان إلى خارج القاعة:

- لماذا؟ أتخاف أن توبِّخك مريم؟ (يقولها أنس باستهزاءٍ)

يجيبه هادي ناظرًا إليه:

- أخاف ألَّا أستطيع الاقتراب منها؛ فجميع الفتيات معها على غير العادة، واحدة... اثنتان... هُنَّ أربعٌ وهي الخامسة.

يخبره أنس مبسِّطًا الأمر عليه:

- اقترب منها، وتراها أصبحت لوحدها. حادثها بأيِّ شيءٍ، فقط اقترب ولو قليلًا.

ينظر هادي إلى مريم؛ يترقَّبُ لحظةً مناسبةً كي يقترب منها.

تبادله مريم نظراتٍ خافتةً كلَّ حينٍ كأنَّها تنتظره.

معي أنس نسير في الطريق الرئيسيِّ لحرم الجامعة، وحين المرور بجانب مريم؛ أقفُ ناظرًا إليها ملقيًا التحيَّة:

- صباح الخير.

تجيب وهي تقترب نحوي:

- صباح النور.

تتجاوز الفتيات فتقترب أكثر، متخلِّيةً عن الدائرة الفتيات التي تحيط بها. تقف وجهًا لوجه أمامي؛ فاستأذنني أنس قائلًا:

- أراك بعد قليل في الندوة.

أجبته:

- وهو كذلك.

ثُمَّ نظرت إلى مريم فأكملت:

- كيف حالكِ اليوم؟

- بخير وأنت؟

- بخير أيضًا، والحمد لله.

- أخيرًا، شارف هذا اليوم على النهاية.

- نعم، يوم منهك. ما رأيكِ بالقهوة؟

نظرت إلى عينيها، ألحظ خديَّها وهما يحمرَّا شيئًا فشيًا، حين التقت مع عينيَّ،

- أودُّ ذلك، لكنَّني سأذهب إلى صديقاتي، وأنت؟

- أنتظركِ؛ لأذهب بعدها إلى البيت.

يزداد خجلُ مريم واحمرار وجنتيها. إذ تذهب بعينيها بعيدًا وتلتفت نحو الفتيات اللاتي يستعجلنها بالذهاب.

- انتظرنِ أكثر؛ لتصلن إلى مدى انتظاري!

قالتها بشيءٍ من الحياء، إذ كانت الكلمات تخرج مع رجفةٍ ورعشةٍ تتخلَّل روحها، إضافةً إلى ابتسامةٍ خفيفةٍ تزيِّن وجهها الثلجيَّ.

- سأحاول إذًا؛ لتعلمي أني أداوم انتظاركِ.

تُزهر وردة المجرة، لتمضي إلى صديقاتها.

انتهى اللقاء، وذهبت مع صديقاتها، وذهب هادي إلى أنس الذي كان ينتظره، ويخبره ماذا حصل لتوِّه مزمجرًا، رغم إشارة مريم بتذوُّق طعم الانتظار، يقول:

- لماذا لم نعد معًا على غير العادة؟

حدَّين لسكينٍ واحدٍ، الخوف من الرفض، أم الخوف من الحبِّ؟

تكثر الاحتمالات كلَّ دقيقةٍ أكثر؛ ليزداد الخوف، ويزداد التكهُّن

بما لا علم لهادي به، سوى الشعور المبهم بالحبِّ، يخشى أن يكون حبًّا من طرفٍ واحدٍ، لكنَّه ليس كذلك؛ فقد تغيَّر معنى الحبِّ وقتها عمَّا آل إليه الآن، كما تغيَّر الجيل السابق عن جيل التطوُّر والتكنولوجيا والنموِّ، أو بدقة أكثر جيل عصر السرعة؛ فالبناء في العلاقة لا يعتمد طول المدَّة؛ بل سرعة بنائها، ليس المعنى بهذا التخلُّف، إذ يختلف بناء الحبّ عن بناء قصرٍ أو فندقٍ، فبكلتا الحالتين، كلَّما زاد التأني؛ زاد الإتقان. ربَّما الحبُّ من النظرة الأولى، أمرٌ مُسلَّمٌ به، لكنَّ الإفصاح عنه بعلائم ودلائل دون البوح به يشي بجماليَّة أكبر، وشغفٍ أكثر لجانبي العلاقة؛ فالطبيعة الروحيَّة للإنسان، تميل نحو التلميح للشيء الغامض بعلائم وإشاراتٍ، دون الإفصاح عنها علانيةً.

كمجتمعٍ شرقيٍّ يُعَدُّ الحبُّ وسيلةً لإفراغ الشهوة، أو أداة الفقير لنيل شيءٍ من معالم الحياة، وما بين الاثنين، الرماديُّون الذين يسلمون للبحث عنه على نحوٍ دائمٍ؛ لذا يظلُّون كالفراش من زهرةٍ إلى أخرى، دون تذوُّق طعم الحبِّ الحقيقيِّ.

دعكِ من هذا يا مريم الآن، وتعالي إلى يوم المرة الأولى التي، أسلفتِ بحبكِ لي، ولو بعد وقت طويل بالنسبة لقلبي.

كان ذلك خلال رسالةٍ ورقيَّةٍ صغيرةٍ، بدأتِ تكتبينها حين علمتِ أنَّني سأذهب إلى الجنوب في العطلة الصيفيَّة. شيءٌ مؤلمٌ أنِّي لن أركِ مدَّة شهرين، كذلك كان سببًا فاصلًا ليدعكِ تخبريني عن حبِّك.

إلى حبيبي هادي:

- أعلم أنَّها متأخِّرةٌ، لكن يجب أن يخبرك قلبي بذلك قبل أن ينطقها لساني، قلبي ليس عندي، إنَّه عندك؛ لهذا أحبُّك!

أخاف من الأيَّام التي تطول، أكثر ممَّا هي طويلةٌ في ذهابك إلى الجنوب؛ لذا أطلب منك العودة سريعًا، أو عدم الذهاب أبدًا.

اعتدت وجودك جانبي، تتنفَّس من الهواء الذي أتنفسه، ويبزغ إليك النور ذاته الذي أراه بعينيك.

كلَّ يومٍ أتذكَّرك، فأبتسم. لا أستطيع النوم باكرًا؛ بل أستطيع التفكير بك دائمًا. لا تظلمني، فأنا أشعر بك داخلي، بقلبك الذي في

صدري، وقلبي الذي ينبض داخل صدرك. حافظ عليه؛ فأنا ضعيفةٌ جدًّا أمامك؛ لا أستطيع البوح بكلِّ ما أشعر به نحوك؛ فلساني يخشى الكلام، ويتلعثم كطفلٍ صغيرٍ لا يعلم من لغته الأم سوى كلمتين: دادا، ماما.

ساعدني على الكلام، وعلِّمني اللغة من جديدٍ.

كما أخبرتك سلفًا، أنا في الانتظار، ولن أدعك تبلغ حدّ انتظاري!

بعد قراءة هذه الكلمات تغيرَّت الأرض بالنسبة لي، صارت فضاءً أطيرُ به إلى أعلى نجمةٍ، وألتمس بعدها سطح القمر. القلب بذخ بانحناء الروح للروح. الكلمات واضحةٌ، والحبُّ ينبع من الحروف.

ما لبثَ أن توجَّه لهاتفه، ليتصل بمريم.

- ألو، مساء الخير؟
- أهلًا! (بشيءٍ من الدهشة)
- أعتذر؛ الوقت متأخِّر، لكنَّني لا أستطيع الصبر؛ أريد أن

أراكِ.

- هل أجَّلتَ سفر الغد؟

- نعم، أجَّلته ساعاتٍ. أريد رؤيتكِ، والتشبُّع بجمال عينيكِ.

- وأهلك؟

- أنتِ أهلي.

بقيت مريم صامتةً لبرهةٍ من الزمن.

- حسنًا، أراكَ غدًا في الحديقة، ما رأيك؟

- موافق. سأشتاق لكِ كثيرًا .

- وأنا... كذلك.

مرَّ الوقت بطيئًا؛ فغدًا أرى مريم قبل ذهابي إلى الجنوب السوريِّ – قرية كويا –.

❖❖❖

جلس هادي ومريم في الحديقة كعصفورين يناشدان الحياة.

الصمت عنوانٌ.

تكتفي بالنظر إلى زهر الطبيعة، ويكتفي بالاستماع إلى ريح نظراتها الناعسة، ميلًا على مهلٍ نحو أركان الحديقة.

لا تنفكُّ وجنتاها عن ملامسة رحيق الزهر في أوج العطاء الربيعيِّ قبيل الغروب. وقتُ الشفق الذي يضع في النفس الطمأنينة حاجةً إلى الهدوء السماويِّ، والشرود في مخيلةٍ تبتعدُ عن الزمان إلى مكانٍ، وزمانٍ مستقبليٍّ، أفكِّرُ به معكِ!

أن أغفو قليلًا على راحتيكِ، أتحسَّسَ صمقة النهر الجاري نحو ساقية مسمعي، أشتمُّ ريح طُهرك الغافي على لوحٍ جليديٍّ أبيض، يشابهه في التركيب، رغم اختلاف الطين والماء، واختلاف المعتقد.

مريم أكثرتِ من ملامسةِ إصبع السبابة لليد اليمنى، إلى الشفتين الرقيقتين. يزاورني المشهد في اليقظة الحالمة، أنَّك ها هنا، تقومين بهذه اللكنة القاسية؛ التي تجعل الحنين شتاءً لنوعٍ من الظلم، لا شتاء دفءٍ ولا شتاء اكتفاء وانكفاء، خلف مدفأة الحب، السيف

الذي شطر قلبي حين همس الأحرف:

ميم: المتيم المستهام، المولع المدمى في ملامحكِ.

راء: الرجولة المؤنثة، الرائقة الرقيقة نحو ربيع الرداء.

يـــاء: النهاية اليابسة، بعد الربيع اليافع.

مـيم: المحـبة الماثلة الملمة، المطمئنة للمكان.

انحنت عينيكِ أرضًا، أخذتِ رشفة من القهوة، ونسيتُ ما كنتُ أذكره، وبدوتُ راكدًا كمياهٍ لا ملجأ لها من نهرٍ أو رافدٍ؛ إلَّا النظر إليكِ. سرتُ كثيرًا بالسكوت، تتبعتني أيضًا بالسكوت.

هو الصمت الفجائي، لواقعةٍ لا بدَّ من أن تحدث.

ركود العواصف والدوامات،

ركود الأمواج قبل الثوران.

تحملين باليد اليسرى، الفنجان وتُحرِّكينه؛ أحملُ عينيَّ، أحرِّكهما بين خديكِ، اليمين محمرٌّ، الشمال محمرٌّ.

عيناكِ تخاف لقاء عينيّ؛ لأسأل نفسي: لماذا؟ خجل الأنوثة، أم اليقين إلى مسلك جارفٍ في عتاب الزمن؟

ما أنتِ يا مريم؟!

أكلِّمكِ، لأقطع السكون فنغيِّر مكان الجلوس:

- تعالي، نمشي خارجًا.

لتجيبي بحذر البداية:

- أحبِّذ هذا؛ قد ضيَّق صدري المكان المغلق.

نقف بعدها، ونسيرُ في الجامعة لطريق الغابة، الذي يسوِّره شجر السرو، ونباتاتٌ صغيرةٌ مورقةٌ. تأخذين أوراقها؛ لتنتقيها شيئًا فشيئًا، تصرفٌ غريبٌ. صرت أساعدكِ بأخذ الورق من أمِّها؛ تبتسمين وتنظرين، فتشكريني بإيماءة العين إذ تغلق جفنها لنكمل حديثنا:

- ماذا تمنيتِ يا مريم؟ أو بماذا حلمتِ قبل أن تكوني هنا؟

- لم أحلم بشيءٍ؛ كنت أفكِّر بدراسة اللغة الإنكليزيَّة، لكنَّ علامتي في مادة اللغة الإنكليزيَّة حالت دون ذلك.

- غريبٌ ألَّا يكون للإنسان حلمٌ!

- لم أعتد على الأحلام، وما فائدة الأحلام حين تبقى أمانيًا،

نزهو بها في مخيِّلتنا؟

- أنتَ حلمت بشيءٍ؟

- حلمتُ كحال كلِّ ذكرٍ أن يكون طبيبًا، حلمٌ متوارثٌ إلينا.

تُقاطع الحديث مريم إذ بدت حزينةً؛ لتغيِّر الحديث:

- غدًا ستسافر إلى أهلك، وأنا سأظلُّ هنا، منشغلة البال. سينقصني وجودك.

- لن يطول السفر، سأحاول العودة سريعًا.

- كان هذا الخبر فجائيًّا.

- سأذهب لرؤية والدي؛ هذا الواجب وهذه صلةٌ.

ظلنا الوقت حينها فلم نعطِ أهميَّة لهذا، تغافلنا من صباح ذلك اليوم حتَّى عصره، فكان سريعًا في مضيِّه، على الرغم من الحديث المطوَّل الذي امتدَّ وقتًا طويلًا، ما بين الأمس، والحاضر، والغد.

❖❖❖

بات الطريق إلى قرية اليرموك (كويا) جميلًا، النسمات الدافئة التي تنعش الجسد على بعد أربع ساعات من التنقل بالحافلات والسيَّارات من دمشق نحو الجنوب،

تتطرف قرية اليرموك (كويا) المنطقة الجنوبيَّة.

تقع غرب جنوب محافظة درعا، حدوديَّةٌ تُطلُّ على نهر اليرموك؛ لهذا تُلقَّب أيضًا باسمه. تحتوي تلالًا متعدِّدةً، كلُّ تلَّةٍ متَّصلةٍ بأختها مقسَّمةٍ إلى أربعة أقسام، كما يُعرف لدى أهل القرية:

الصُفي: منطقةٌ سهليَّةٌ مرتفعةٌ عن أخواتها، تحوي أبنية لأهل القرية، وأشجار الزيتون الفاصلة بين كلِّ بيتٍ.

تليها منطقة السهلِ، تحوي الأراضي الخصبة السهليَّة ذات التربة الحمراء، الصالحة للمشاريع النباتيَّة كالبندورة الفاصولياء واللوبياء... إلخ.

يعتادُ المزارعون زراعة أسوارٍ من الذرة، أو عبَّاد الشمس، بين كلِّ مشروعٍ خاصٍّ لأيِّ بستانٍ.

تليها المِربعة، مساحتها الأصغر، تعدُّ الواصلة بين السهل والشِريعة.

آخرها الشِريعة: وهي الأرض التي تصلح لزراعة الحمضيَّات والزيتون، والمشاريع الأخرى المجاورة لنهر اليرموك.

بين السهل والمربعة إطلالة ترى خلالها التلال المجاورة للأردن الشقيق؛ كما تطلُّ على الشريعة، التي تقع كأخدودٍ بين جبلين ويمر بينهما نهر اليرموك.

اعتاد هادي المكوث على هذه الإطلالة كلَّ غروبٍ مع ابن عمه أسامة، الذي يصغره بسنةٍ.

طالبٌ بكليَّة الصيدلة في السنة الأولى، أسمر البشرة، متوسِّط الطول، شعره أسود خفيفٌ.

يستمعُ للهدوء المتناغم مع صوتِ النهر، وأعزوفته العذبة تُؤنس الروح، وتُريح الخاطر، وتعطي للعين بهجة التمتُّع بالمنظر الزاهي، لمكانٍ هو جنة على الأرض.

لكن رغم كلِّ هذا الجمال، المكان موحش دون ريحكِ، لست

مجنونًا إلى هذا الحدِّ، لكنَّني اليوم أدركتُ جنوني.

يومًا بعد يوم، ولحظة تلو لحظةٍ.

صدِّقيني إنِّي الحزين والفرح.

أملك مسقطيِّ رأسٍ، في أحدها أرى متسعَ ذاكرتي التي لا تملُّ تقليب الصور والمواقف، ثانيها حين الصبا بين أطفال حارتنا، حيث المضيُّ إلى كرَّاسات الدراسة باكرًا، محمولين من النوم وناعسين أيضًا.

لا أجد رغم اتساع المساحات حولي، سوى فراغٍ كاملٍ لا أطيق وجوده

اللوز البادي من نور العين، يُخبر ولا يختبر.

قاسٍ بطبعه لا يطلُّ إلَّا مرَّةً في العام، ويبقى في الذاكرة على الدوام.

❖❖❖

زحمةٌ تملأُ الأماكن، والناس فارغون من أيِّ لهفةٍ نحوهم.

أسأل عنكِ بين الزحام، أُقلِّب الوجوه وجهًا وجهًا، أجوب الزوايا، ولا أرى سوى شعاع نظرتي المتوهِّجة إلى العتم في غيابكِ الأوَّل، قُبيل البداية لم أعد أحتمل.

أبواب الجامعة أُغلِقَت الآن حتَّى فصلٍ جديدٍ، والحرب داخلي فاتكة، ربَّما الحرب تقتل وتُريق الدماء، لكنَّها أيضًا تقتل الأحياء، تبقيهم على ذمَّة الموت أحياء!

كيف لي أن أعلم حالك؟

أسأل قلبي مرارًا، أسأل عيني، أسأل كلَّ ما فيَّ، أؤمن أنَّك بخير، أريدُ رؤيتكِ.

أجلس مع أسامة، عادةً أقضي الوقت معه، تجمعنا الغرابة في الحديث والوحدة رغم اتساع المكان؛ فنجول بما يخطر على البال ونتحدَّث هذه المرَّة عن الحرب دون مناسبةٍ، إذ يسألني أسامة:

- إلى متى ستبقى الحرب؟
- الحرب يا صديقي زائلةٌ، بمحض بدايتها، لكنَّ أعراضها

باقيةٌ، في وجودِ من زار لحظتها.

- لماذا؟
- لأنَّ الأماكن تفوح بعبق الدم، ورائحة الدم مستمرَّةٌ لمدَّةٍ طويلةٍ من الزمن، والزمن أثر محضي بغربلة التراب لا مكان له، إنَّما المكان هو الدليل والوكيل ورائحة العبق.
- لا نهاية للحرب إذن؟
- نهاية الحرب في العلن، بدايةٌ لحربٍ في الداخل أكثر فتكًا من حرب الرصاص والمدافع. دعكَ من الحرب وأوجاعها، لنتحدَّث عن الحبِّ وأحلامه.
- كأنَّك تلمِّح إلى مريم -يضحك-، بادٍ على وجهك مثل مئذنة في وسط عاصمةٍ. تخبرني عينيك بذلك. لا أنصحك بالحبِّ؛ كي لا تبقى عازبًا، فتحرم نفسك من ذريَّة الابن والابنة أو نعمة الزوجة.
- أُحبُّ، كي أتزوَّج من أحبُّ.
- العرب يحبُّون كي يعيشوا الحبَّ، ويموتون في عذابه. كلُّ

قفصٍ يحمل عصفورًا وحيدًا، أنهكته عادة السفر البعيدة؛ فعاد إلى بيته موكلًا أمره إلى السجن بين قضبان جامدةٍ.

- العاداتُ لا تسمح للعربيَّة البقاء مع من تحب، الحبُّ عارٌ لدينا يا هادي!
- مشكلتك وضع أيَّ شيءٍ في الدنيا كحالك، وتحتكره برأيك، أعلم أنَّك ما أحببت يومًا.
- ليس ذنب أحدٍ ياصديقي، بل ذنب تقصيري؛ لستُ رجلًا، لا زلت شابًّا.
- وهل هنالك فرقٌ بين الشابِّ والرجل؟
- المعنى الماديُّ واحدٌ، أمَّا الجوهريُّ يختلف؛ فالشاب من شبَّت به الدنيا وأعطته محاسنها، وإن أحسن التصرُّف بها صار رجلًا؛ أمَّا إن لم يغتنمها، صار عجوزًا بعمرٍ سابقٍ لأوانه، وشابت به الحال.
- أحببت جملتك الأخيرة، لكن من الأفضل أن نعود للديار، فغياب الشمس قد حان.

❖❖❖

احتجتُ إلى صباح يبزغ، كي أشعر بالإحساس المبهم الذي يفطرني. أغدو شبحًا يطارد فكرةً عنك، أتلعثمُ في مبتغاي، وأتكبَّلُ في رؤاي.

لا أعلم سوى أنَّ الهواء مغلوب على أمره؛ ليكون أداة محيا لنا، مثل حالي أعيش في مكان بعيدٍ عنك وبعيدٍ عني، بمعناي ومبغاي المعنوي.

النهار جديد، أشعرُ ببؤسه الحالك الذي يجول في فكري. أيَّة وسيلةٍ تُطلعني بأخبار عنك، كيف تشعرين؟ أأنا في بالكِ الآن، كما أنت دائمًا في البال؟ أسأل نفسي السؤال ذاته، لماذا لم أطل النظر في عينيكِ، أيجوز أنِّي وصلت لدرجةٍ من نسيان الكون بتلك اللحظة، فلم أذكر إلَّا التي أمامي؟ الحلم السوداويُّ الظاهر، ياقوتي الباطن؛ فغلب عليّ نُعاس السحر لسؤالٍ ثُمَّ جوابٍ عن عدد ذريَّة أبي.

لماذا سألِتني؟!

سؤالكِ فضوليٌّ وعاديٌّ، لدرجة أنَّه كان يحمل متَّسعًا كبيرًا من الأجوبة.

لم أقترف الخطأ بعد الجواب، بمعاودة السؤال بما سألتِ.

تميل الشفاه، فأسأل نجمةً في سماء الخيال تجلس جانبي. أتمايل مع لفظها، أغرقُ مجرَّدًا دون عوم، مستسلمًا، وحالمًا بقبلةٍ واحدةٍ على هذه الشفاه.

غريزة الجسد قويَّةٌ عندي، لكنَّها للمرة الأولى لم تتحرَّك. لا تخطئي الظنَّ، فأنا منذ مدَّةٍ، طلبت إغلاق باب فتحةٍ باديةٍ لصدركِ، نتيجة حركة خاطئةٍ للوشاح، أمَّا الشفاه الملامسة للريح، ليس بإمكاني غضُّ النظر عنها. همِّي رؤيتها تتحرَّك في الحديث، لتسير عذبة مثل هذا النهر المتطر، الحدُّ الفاصل في مثلثٍ لمدينةٍ محتلَّةٍ، ومدينةٍ جارةٍ، وقريةٍ أنتمي إليها جانب نهر اليرموك (كويا)، ما ألطف صوته!

من خلاله، أسمع أعاذيب الأحرف الأبجديَّة الخارجة من شفاهكِ الورديَّة، لذلك كنتُ أطيل الجلوس جانبه دون الاقتراب كثيرًا منه؛ كيلا أدنِّس عذريَّته!

طوال أربعين يومًا، وأنا دائم الاشتعال فيكِ.

اشتقتُ إليكِ.

من حقِّي الاشتياق، والنظر المطوَّل في الصدف الحائلة بيننا.

❖❖❖

ساكنةٌ هي الساعات، كأنّها كابوس يناهز الجسد. أمضي إلى مكانٍ حيث لا مكان فيه، أحملُ ما اقتبست من الكلام؛ فالحنين موطني.

هنا المجاز قد ابتدى يا مريم؛ حينها أصبح لدينا متسعٌ من الوقت لنتكلَّم. نقضي ساعاتٍ طويلةً نجوب معالم التاريخ. أنا أدخل بوَّابة الحضارة، أدخل قلب أنثى لطيفةٍ، أسير مغرمًا بكلِّ كلمةٍ تخرج منكِ. تلك البسمات الخفيفة الخارجة أمامي تُريح ناظري، تُعطي قلبي وهجًا وروحي مرسمًا من الورد والحدائق. لطالما لدى بابل معلقات. أردتُ جعلكِ معلقاتي، معجزةٌ لا تدخل الخرائط، لكنَّ رجلًا مثلي، لا يملك سوى كرَّاساتٍ صغيرةً، لن ينجب وطنًا لعروسٍ جميلةٍ مثلك.

لم أفكِّر بالنهاية حينها، رأيتها جميلة، يجوز أنَّ القلب وليد اللحظة، لحظة نبضة الشغف إلى اللقاء، نبضة الحاجة إلى الحبِّ، نبضة العربيِّ الذي يريد البناء لذاته بين أضلع الأنوثة.

- استلهكت في حبكِ ثمانيَ وعشرين حرفًا، دون انتباهي أنَّ الإسراف في الدين محرَّمٌ!

❖❖❖

أمضى هادي أربعين يومًا من البعد عن مريم، كفراقٍ مؤقَّتٍ، أو كجرعةٍ أوليَّةٍ، لمعرفة المعنى الأوليِّ للفراق.

المسافة بعيدةٌ، دقَّاتُ القلبِ متَّصلةٌ، لكنَّ الخوف من معصية الزمان على تفرقة، ربَّما تأتي ذات يوم!

أربعون يومًا بلا لقاءٍ، لا نظراتٍ متبادلةً بين طلع الورد وفراشة العبير، عدا النسيم يجتاز الروح ذاتها.

فما كان السبيل إلى اللقاء، سوى أحاديث الهاتف اليوميَّة، التي تطول حتَّى أوائل الفجر، تقرِّب البعيد، وتشعره أنَّه جانبك، وسيلةٌ جمعت بين اثنين، يجمع بينهما الشعور ذاته بالأمل، خلافًا للحبِّ الذي ينتهي بحذفٍ أو حظرٍ من قائمة الأصدقاء.

يبدو كذلك في الحياة الواقعيَّة، إنَّما دون أدوات تحكُّمٍ ماديَّةٍ.

لم تكن الفكرة أن نتكلَّم، أو نتحدَّث عن شيءٍ ذي أهميَّةٍ، كانت الفكرة أن نبقى معًا، ولو بصمتٍ دامغٍ حتَّى نسمع نبضات القلب المشتاقة التوَّاقة إلى اللقاء.

أربعون يومًا يا مريم، أعطتني لسعة البُعد أو الغياب، كُنت

أبكي شوقًا، أبكي، وأبكي حتَّى عيوني من شدَّة البكاء باتت معدومةَ الشعور بالعين حين ذرفِ الدموع.

العدو الوحيد هو الوقت، الذي لا يكترث لمدى الشعور القاطن داخل الروح وجوفَ الجسد.

فراغٌ هي الحياة دونكِ.

علمتني معناك،

وأشهدتني على المنفى سِواك.

لم يكن الأمرُ سهلًا لدى مريم، التي عانت على نحوٍ كبيرٍ من حسٍّ مرهفٍ، رقةٍ دامغةٍ، تنتظر إنارة وإشارة عودة.

يشغلُ البال الفارس، الذي يمتطي بيديه أحلامَها.

تمرُّ الليالي بطيئةً، كأنَّها تعاكس الزمن إلى الخلف، هكذا الوقت حين غياب من نحبُّ، يبدو مماطلًا أكثر من العادة.

الانتظار يبدو مرهقًا، كالطقسِ الذي نتشاركه جميعًا. أدوات شطرنج ننتظرُ الحركةَ التالية، ربَّما حان دوري لأتقدَّم إلى رقعةٍ أقرب نحو الانتصار، أو الهزيمة.

أغلبُنا خاسر.

قد يخسرُ الروحَ قبل خطِّ النهاية؛ فتكون النهاية لروحه مفارقة الجسد.

فريقان أسودُ وأبيض، نحتاج العقلَ والتدبيرَ والدهاءَ، أكثر من العدو أو الفريق الآخر، الذي هو الحياة.

أنا وأنتِ، فريقٌ واحد، من ملكةٍ ووزيرها.

للوزير دورٌ كبيرٌ في ربح المعركة، لكنَّ حركةً واحدةً من الملكة، تودي بحياة وزيرها.

ربَّما تضحية الملكة من أجل مملكتها،

لكنَّ للحقيقة، وجهان كما اعتدنا دائمًا.

❖❖❖

الفصل الثاني

هادي

ما إن وصلتُ دمشق، حتَّى فاح ضجيج السيَّارات المتراصَّة والناس العابرون والشوارع المكتظة بهم، من باب مصلى، حتى غرفتي الواقعة في ساروجة.

فصل الصيف الدورة الثالثة، لهذا لم يكن غيابي عن دمشق مدَّة شهرين؛ بل أقلَّ من ذلك، أربعون يومًا.

أدرس تحضيرًا لأصير في السنة الثالثة، والأهمُّ رؤية مريم؛ أرى ما حلَّ بوردة الربيع بعد عتمة أربعين يومًا.

فأوَّل وجهةٍ لي الجامعة لأرى مريم.

❖❖❖

مريم

ما إن ولجَ هادي وبان ظهوره؛ تحركت الروحُ داخلي وكأنَّما بثَّت الحياة في جسدي من جديد. المرَّةُ الأولى في الحبِّ، بعد حصادي ثلاثة وعشرين عامًا.

ما إن صار بجانبي ليجلس. أردتُ معانقته بكلِّ ما أوتيت من شوقٍ وتوق للقاء.

اقترب إليَّ؛ لأبتعدَ كردَّة فعلٍ لا شعوريَّةٍ عن زميلاتي، وأبقى ساكنةً ناظرة إليه.

أقول متنهِّدةً، بعد شهيق يستدرج الأوكسجين العذب داخل صدري :

- انتظرتكَ كثيرًا؛ فلا معنى لشيءٍ دونك.

يتكلَّم هادي مبتسمًا ابتسامةً خفيفةً، وقد تصدَّر النبض عينيه:

- ماذا أقول؟ أنا الذي كففتِ روحي عن روحها وهمّت البقاء هنا على أطراف بيتك.

- يغلبني كلامك دائمًا.

يقاطعها هادي، ليقترب منها أكثر، هامسًا:

- اشتقت إليكِ.
- وأنا أيضًا.

ترفع مريم ما بيديها من كتابٍ وأوراق؛ تحضيرًا للمادة القادمة. تبتعد عن حرج الموقف وحياء اللحظة.

- نلتقي بعد تقديم المادة؛ لأطمئن عليك أكثر.
- حينما أنتهي، سأظلُّ باحثًا عنكِ كما العادة.

تبتسم مريم ابتسامةً خفيفةً، وتذهب إلى زميلاتها؛ أمَّا هادي، يذهب أيضًا ليلتقي بعض الزملاء الآخرين.

❖❖❖

مريم

رأيتُكَ بعد فترة الصبر الذي أبرح بقلبي، وجعلني منهمكةً، كان يومًا جميلًا حافلًا بكمٍّ كبيرٍ من الشوق، الذي بدا على وجهك، كم أحبُّك أيُّها الفتى؟!

جعلتني ضعيفةً أمام عينيكَ، حزينةً دونكَ، وحيدةً في غيابكَ، حالمةً بالبقاء في أحضانك.

دائمًا ما تجعلني أصلُ حدَّ الجنون بغيرتي، وخوفي أن أفقدك. ما إن اقتربت إحدى الزميلات وكلَّمتك؛ أهرعُ سريعًا لأكون جانبكَ، أسمعُ ماذا تكلَّمَت. تبتسم حينها بسمةَ متجبِّرٍ استولى على قلبي، أحببتُ جبروتك وحبَّك لي وحنينك رغم القسوة المختبئة خلف عينيك.

أنتَ هويَّتي يا هادي!

كتبت مريم هذه السطور، بعدها خلدت إلى النوم.

للقصَّة بقيَّةٌ، هذه البداية فقط!

❖❖❖

2016

هادي...

كثيرًا يا مريم ما كنَّا نجلس على ذلك المقعد المقابل للشؤون الإداريَّة بالكلية؛ نتبادل الكلام عن الدراسة، المحاضرات، الحياة. أحيانًا أخرى نسيرُ متَّجهين مبتعدين، إلى أماكن يتخلَّلها الهدوء؛ لمعادلة الصخب الناتج عن داخلنا.

اليوم كما تلك الأيَّام، حلمتُ بكِ.

رغم المسافة البعيدة الحالكة بيننا، والبوَّابات الموصدة، كنتِ تبكين، هاربةً لاجئةً إلى صدري. لم تتكلَّمي في الحلم، كان الكلام صعبًا، بعد طول الشوق وعذابه. بعد فترةٍ من السكون، كسرَ الصمتُ بسمتَك التي لا تفارقني، شعرتِ بالأمان بين ذراعيَّ،

ليت الحلم حقيقةٌ!

ليتكِ الآن جانبي؛ تحصي لنا أيَّام العمر التي جارت علينا!

❖❖❖

ثلاث سنين ونيِّف، حتَّى تغيَّرت أحوالُ القصيدة بين مريم وهادي.

آخر السنة الخامسة، التي كان بدايتها اتفاقٌ دار بينهما، بتأجيل التخرُّج، ونيل الشهادة بعد سنةٍ؛ لكسب الوقت والبقاء جانب بعضهما؛ فالجامعة هي الوسيلة السهلة للقاء على نحوٍ متكرِّر.

زفَّت مريم إلى خطيبها حسن، ذي الخمسة والثلاثين عامًا، خبر الموافقة عن طريق أبيها، وذلك خلال يومٍ حافلٍ، انتهى بموافقتها، بعد إصرارهِا لشهر كامل على الرفض، منذ تقدُّمه السابق لمرَّتين لخطبتها.

ما الذي جرى حتَّى وافقت مريم؛ انتهى الحبُّ!

الغيرة والخوف، من الخسارة خلال المعركة، وهي في أوجها؛ فقرَّرت أن تُطعم هادي ممَّا أذى؛ نتيجة رؤيته مع زميلته إلهام على الكرسيِّ صباحًا. رأت هادي وهو يضحك من داخل قلبه، تبادله إلهام ذلك؛ لينصبَّ الجنون أجزاء جسدها، ويرتكَّز عقلها. ليست غريبةً عن هادي لتفرِّق معنى هذه البسمة، لم تقترب نحوه؛ بل

تركته، وذهبت تجلس بعيدًا مواربةً لهما، تنظرُ من بعيد، وهي تُفكِّر: كم مرَّةً عليَّ أن أخبره الابتعاد عن إلهام؟ لا أعدُّها كأختٍ أو زميلةٍ له، أحلامها معه أكبر من ذلك، قلبي هكذا يقول! لماذا يُخفي ويُجازف معي بأن يراها؟ ألا يراعي طلبي وما أريد! أم أنَّني لا شيء عندهُ بعد هذه السنين؟ قد تكون تغيَّرت مشاعره نحوي، ووجوده معي من منحى الواجب ليس إلَّا.

العقلُ يشوبه التشويش، النارُ تستعرُ لتنصبَّ في القلب المُدمَّى، الغيرة هي أهدى هذه النيران، لا سيَّما أنَّ الكذب في هذه الحالة، أصبح ظاهرًا، أو مطلع شكٍّ من مريم تجاه هادي؛ باقترافه خطأ الكذب بعدم إخبار حبيبته، أو بطلب إذنها، ما يدلُّ على أنَّ وراء هذا اللقاء، موعدًا غراميًّا؛ يُلهب حربًا نهايتها الندم على فعلٍ لم يفعله!

بعد راياتٍ حمراء سابقةٍ من مريم، التي كثيرًا ما وبَّختهُ على الحديث مع فتيات عبر الإنترنت، لا سيَّما إلهام، التي تتمايل أمامه،

وها هي تستيقظ باكرًا -على غير العادة- لتجلس معه، وتصطبح به؛ لتوقعه في شباكها.

تُحادث مريم نفسها: ألا يعلم أنِّي في طريقي إليه، جئتُ أراه؛ لأخبره أنَّ حسن أتى البارحة تقدَّم من جديدٍ للزواج بي؟ جئتُ أطلب وجوده جانبي، لكنَّه لا يلقي لي بالًا!

تُخرج هاتفها المحمول من حقيبتها، والدموع تدرك طريقها على مروج خدَّيها، وتبعث برسالةٍ إلى هادي.

- أرجو أن يكون صباحك جميل كإلهام، أنا عائدة إلى البيت، أعلم مدى انشغالك؛ لهذا لم تشعر بوجودي منذ ربع ساعةٍ قد وصلت، وانتظرت؛ عساك تذكرني.

ترسل الرسالة النصيَّة إلى هادي، الذي قرأ ما كُتب فيها، ليتصل بمريم مرَّةً ومرَّاتٍ، دون ردٍّ على اتصاله المتوالي، الذي لم يخفِّف من عزيمة الإصرار، لتلمس الإشارة الحمراء من على شاشة الهاتف المحمول، ردّ رادع، دليل الغضب الجامح، إضافة للخيبة التي شكلت الهَرَبَ مسلكًا لمريم.

تلحظ إلهام توتُّر هادي، وهو يمسك هاتفه المحمول مواصلًا النظر إلى الشاشة.

إلهام: مَن مريم؟!

تسأله مستفسرةً متفاجئةً؛ يجيب هادي وقد نفث الهواء من داخله:

- نعم مريم، وهي عائدة إلى البيت بعد أن رأتني.

تتعجَّب إلهام مقاطعة هادي:

- رأتك! ولِمَ لم تأتي؟ ألا تعلم أنَّك تساعدني في الدراسة، وقد أخذت منها إذنًا بمحادثتك أو التكلُّم معك سابقًا؟ والآن التقينا مصادفةً فشغلتنا الأحاديث المطوَّلة.

يغمض هادي عينيه واضعًا كفيه على وجهه :

- صحيح، لكن ما كان عليَّ أن أراكِ الآن، وكان عليَّ إخبارها وطلب الإذن أيما مرة نلتقي بها، هذا وأن تكون معنا، أو أخبرها أنَّني هنا معك، لتأتي حالما تصل.

تبدي إلهام علامات الأسى:

- آسفة، هذا خطأي، حين رأيتك جالسًا، جلست جانبك وألهيتك بعض الوقت. أعلم مدى غيرة مريم ومدى غيرتك، لكنَّه خطأي، وعلى مريم أن تسامحك.

- لا عليكِ، سأعاود الاتصال؛ ربَّما تجيب.

يتصل هادي من جديد، مرَّة، اثنتين، خمسة، فجأةً يُفتح الباب الموصد خلال الهاتف بردِّ مريم .

- شو بدك!

(تقولها بنبرة حادَّةٍ عصبيَّةٍ)

- وينك؟

- ما دخلك!

- مريومتي وينك، إنتِ خليني شوفك قبل ما تروحي.

- ما دخلك؟ بعدين أنا باهفا منيح هيك.

(تقولها غاضبةً، وقد دقَّ الدمع عينيها في حرقةٍ وغصَّةٍ)

- يا قلبي، ريتو أنا يلي باهفا ولا إنتِ. ارجعي لاقيني عند باب الجامعة، وخليني أقل شي شوفك خمس دقائق

تسمعيني، وبعدا روحي. ما بدي ياكي تدايقي حالك، أقل شي خليني شوفك.

- ما بدي؛ خليك مع حبيبتك الجديدة وقضي يومك معا، وأنا حابة كون لحالي.

(تقولها بحزم، وقد اتخذت قرارها)

جعَلت هادي ضعيفًا أمام شدَّة صوتها وعصبيَّتها.

- عندي حبيبة وحدة جديدة وقديمة، أرومتي المجنونة، والغيورة، ويلي مافيي بلاها. كنت ناطرع مقعدنا، بس ما إجت تركتني وراحت.

يقول هادي بشيءٍ من الحنان؛ مداعبًا قلب مريم، مستعطفًا رقَّتها لتستقيظ وتنقذه من هذا الموقف الذي لا يُحسَدُ عليه.

- باي.

وتغلق الخط في وجه هادي، ذاهبةً إلى البيت؛ تنفرد مع بكائها بقيَّة اليوم.

مريم دخلت غرفتها وأوصدت الباب، ما زالت الساعة التاسعة

صباحًا، وجهها المكفهر الغاضب لاحظته عائشة والأم.

استلقت على سريرها، تودُّ من الأرض أن تأخذ داخلها؛ لشدَّة الضيق الذي زار الصدر فغدا ضيفًا ثقيلًا. الدموعُ سيلٌ انهمر، أخضب خديها الذائبين شدَّة الحرقة .

تحبسُ الصراخ داخل حبالها الصوتيَّة، مغمضة العينين.

تنير شاشة المحمول الذي وضعته جانبها؛ تغلق الاتصال الوارد من هادي، وتطفئ الشبكة خلال، وضع الطيران، لتتابع بكاءها الدمويَّ، ثُمَّ تمسك الهاتف؛ لتدخل الإستديو، فترى صورها مع هادي، متألِّمة، تحذف الصور المشتركة، صورةً صورة بعد أن تراها، لتقول لنفسها: لو أحبَّني، ما فعل هذا. حذَّرته أكثر من مرَّةٍ، وسامحته أكثر من مرَّةٍ.

بعد أن انتهت، تحاول النوم لتهرب ممَّا حدث بينها وبين هادي، عازمةً أنَّ هذه المرة غير كلِّ مرَّةٍ.

النظرات والبسمات المتبادلة، رأتهُ بعينيها.

- هادي خائنٌ، كاذبٌ، أنانيٌّ.

تقولها بلسانها، لكنَّ قلبها ينبض باسم الشوق إليه.

تحمل القلم، وتفتح دفتر المذكِّرات؛ محاولة إزالة بعض الألم.

بعرف إني بحبك وبتعرف، بس ليه هيك عملت؟ ما بتحس فيني وبغيرتي؟

أنا بعمري ما قلتلك لأ أو كذبت عليك، أو حتى ما راعيت غيرتك.

وعدتني ما تشوف إلهام غير للدراسة، وبوجودي، وليكك شفتا.

ليش ما خبرتني؟

وعدتني ما تكذب عليي، وليك بأقل شي كذبت.

وعدتني بأنك تحبني، وليكك ما عم تعمل شي يبين الحب؟

وعدتني، بس ما عم تنفذ الوعد.

ما عاد فيي صدقك، ولا قلبي قدران يتحمل ذنبك.

بكذب عليك إذا بقلك لسا بأمنلك.

صرت خاف منك؛ لأن ما عاد فيي إضمنك.

مرة سامحتك، والتانية عفيت عنك، والتالتة بكيت وطلبت ما تعيدا، والرابعة آسفة ظلمتني معك.

حبعد عنك.

وضعت القلم، ثم أسندت رأسها على الدفتر تذرف آخر دمع من بحرها، فتمسح آثاره وتستلقي على السرير، محاولة طرد الأفكار من عقلها!

هادي يحاول الاتصال بعد المرة التي أغلقت بها مريم المكالمة، لكن خارج نطاق الخدمة. يترك الجامعة متجهًا إلى بيتها في ركن الدين، وهو يفكِّر:

- سأطرق الباب، وأدخل، ولو كلَّفني هذا عمري، لا يجب أن أدعها في هذه الحالة؛ كلُّ هذا ذنبي، سرقني الوقت، الغشاوة انطلت على عقلي؛ لأنسى أنّـَها آتيةٌ. لماذا تستفيض غيظًا من إلهام؟ رغم علمها أنِّي لا حبَّ لي سواها.

حين وصل قريب البيت -بيتها- علم ألَّا مجال للمغامرة الآن؛ فتزداد الطين بلَّةً، فأيُّ عذرٍ يجعله يدخل بيتها الآن في وقتٍ باكرٍ؟

عاد أدراجه نحو ساروجة ليدخل غرفته، عسى مريم تأخذ قليلًا من الوقت. تركها تأخذ متَّسعًا لنفسها، ولو أنّه ما أحبَّ أن يكون سببًا لدمعة من دموعها .

- بعد ساعةٍ أو أقلَّ، ستتصل بي، أو أحاول الاتصال لأعتذر، وستسامحني على ذنبي، أحبُّها.

❖❖❖

استيقظت مريم من غفوتها.

عائشة جانبها تنظر إليها، تطمئن على حالها؛ فما بدا على مريم يفوق الحزن، الدلالات واضحةٌ بأنَّ هناك خطبٌ ما.

الصدرُ ضاقَ مما اتسم داخله، العين رَمَدَت وظهر أثرٌ أسفل الجفن دلالةً على كميَّة الدرِّ الساقط.

حزينٌ هذا اليوم.. في منتصفه عند الظهيرة، عائشة تسأل مريم، بعد دخولها والجلوس على الجانب الأيمن لسرير مريم:

- ماذا بكِ؟

شاحبة الوجه، ساكنةٌ، كأنَّها ستكمل طقس الدموع، مجيبةً بخفوت شمعةٍ:

- لا شيء.

تبتسم لها عائشة وتسألها مستجوبة، المعنى ذاته بكلماتٍ أخرى:

- الأمور توضِّح غير ذلك، أخاصمكِ هادي؟

- أكبر من خصامٍ.

قالتها مريم وهي تزمُّ شفتيها، تقترب عائشة وقد شغفها الفضول:

- كيف ذلك؟

تحدِّثها مريم سبب هذا الحال، وتنبيهها له عن إلهام وغيرها من الفتيات. تجيبها عائشة أن تعفو عنه، لكن بعد أن تلقِّنه درسًا، وعقوبةً على فعلته بألَّا تخاطبه اليوم أو تكلِّمه، وتتركه ليشعر بذنبه أكثر فلا يكرِّره .

عمدت مريم، وقد طغا الأمر عقلها بأنَّ الدرس سيبدو قاسيًا هذه المرَّة.

مريم التي لسنواتٍ ما كان الخصام بينها وبين هادي يتجاوز الساعة، ما إن احترق أحدهما، إلَّا وهبَّ الآخر لنجدته فيحترق معه. هادي الضعيف أمام دمعةٍ من دموعها، يستغني عن أيِّ شيءٍ مقابل ألَّا يراها حزينةً.

جميع هذه الأسباب وما فيها من حبٍّ، لاذت بالفرار حين وصل الأب الحاج إبراهيم.

حان وقت الغداء.

تجلس العائلة على طاولة الغداء، الأب والأم والأخت عائشة، وزوجها ومريم.

بعد الانتهاء من الغداء، وقت الحديث العائلي، لا سيَّما أنَّ العريس حسن للمرَّة الثالثة ينتظر جوابًا. الحاج إبراهيم يراه مناسبًا لابنته، ذو نفوذٍ، غنيٌّ، وصديق صهره الذي لم يشكُ من أيَّ عيبٍ، أقلُّها يأمن على ابنته أن تعيش حياةً كالتي عاشتها بين جناحيه، فالنقود وسيلة السعادة بنظر الغنيِّ، أو ربَّما فقط بنظر الحاج إبراهيم لوحده! الحاج إبراهيم الذي أقصى عائشة بعيدًا عن ابن عمِّها ليخلِّصها من لعنة الحبِّ، بوصف أنَّ لكلِّ شيءٍ ثمنٌ، فالحبُّ لديه هو الزواج الحلال، بعد خاتم الخطبة وعقد القران، الدخول من واسع الباب لا التخفِّي خارجه.

ليس صاحب القرار بلسانه؛ بل بأفعاله.

طَلَبْ حسن لمريم ليس ثلاث مرَّاتٍ خلال هذا الشهر، بل كان طلبًا واحدًا بداية الشهر؛ كلُّ مرَّةٍ ترفضه مريم، يُكنُّه أباها ولا

يعطي جوابًا؛ لحسن حُجَّة أنَّ العروس يلزمها وقتٌ كافٍ لتفكِّر، وأنت كي تأخذ جوابًا عليك الانتظار ولو سنةً كاملةً، فللمرأة حقُّ التمهُّل بالجواب.

الضغط على نحوٍ غير مباشرٍ وسيلةٌ متقنةٌ من مدبِّرٍ، لا يطلب من مريم أن تبتعد عن هادي، بل يدلُّها على طرقٍ كثيرةٍ وهميَّةٍ، إذ يُغلق أبوابها جميعًا ويبقي بابًا واحدًا مفتوحًا لتسكله مريم، وكأنَّه لا شأن له بهذا الاختيار!

❖❖❖

الضغط...

الحاج إبراهيم لا يكلِّم مريم منذ أكثر من شهر، دافعًا صهره لهذا الأمر، وزوجته كذلك وعائشة.

فالأم حين عودة ابنتها المفاجئ، وكأنَّ خطبًا ما حصل، لم يزعزع داخلها شيءٌ لتقف وتذهب نحو ابنتها، كذلك أرادت أن تفعل عائشة، لكنَّها خائفةٌ على مريم أن تلقى المصير ذاته الذي تلقَّته مع ابن عمِّها، باللعبة المُمارسة ذاتها قبل تسع سنواتٍ من زواجها. لم تنسَ ذاك الحبيب (ابن عمها). تعلم أنَّه بخير على ما يبدو، لكن الباطن لا يبدو كذلك. لم يتزوَّج إلى الآن، تقتنص رؤيته وأخباره، لكنَّها لا تقترب، فهي متزوِّجةٌ من غيره؛ والسبب هو الحاج إبراهيم، القائم بحجَّة تأمين حياةٍ هانئةٍ لابنته؛ ليؤمِّن لنفسه بنكًا.

الطمع لا دين له، وطمع هذا الأب أساس بناء قراره!

تعدَّدت أسباب الإجابة من مريم وفي صمتٍ ودون أيِّ مقدِّمةٍ، لا أحد من أهلها ينظر إليها، كأنَّها اللا وجود. يتحدَّث الحاج مع صهره وزوجته، أمَّا مريم فلا حديث معها.

على حين غفلةٍ، تكسر صمتها المتواصل لتقول:

- أوافق على زواجي من حسن.

دون أن يعطي الحاج أيَّ اهتمامٍ، مشيرًا إلى زوج عائشة،

- أخبري حسنَ بذلك؛ لنتَّفق بعدها على موعد قراءة الفاتحة وعقد القران.

يقف الحاج إبراهيم من على الكرسي يستدير ليذهب إلى غرفته، وعائشة أصابها الذعر.

- مريم تسرَّعت بالقرار، مريم التي رفضت قبل حسن الكثير من الأشخاص، الآن تستسلم وبهذه السهولة؟! هذا ليس عقابًا يا مريم، هذا حريق عذابٍ!

تُكلِّم عائشة نفسها، وراية الحزن قد عصفت بها، لتقف فجأةً وكأنَّ خطرًا أصابها.

تنظر إلى مريم نظرةً حادَّةً مستنكرة قرارها، وتدخل إلى غرفتها لتغلق خلفها الباب .

زوج عائشة يعلم أنَّ هذا دليل استنكارٍ، لكن ليس بيده؛ حيلة فهو المحبُّ لعائشة، الذي يغلب عليه البرود تجاه حروبها،

والاستسلام لما تقرِّر أو تفعل. زوجته تبقى مهما فعلت من عصفٍ وبركان.

خيَّم الليل، ومريم تُخيِّم بغرفتها، فاللحظة التي قالت بها نعم، غيَّرت كلَّ ما بعدها.

❖❖❖

هادي...

اليوم طويلٌ، لا قوَّة لي على العمل، عجلة الحياة مستمرَّةٌ بدورانها التي أساسها مريم، الجزء الذي يكمل كلَّ شيءٍ. انتهت نوبة عملي، مثل هذا الوقت عادةً أسمع صوت مريم، أو رسالةً منها تخبرني الشوق؛ لتزيل أواصل التعب من جسدي. أشعر بانتظارها، ومراقبتها عقارب الساعة حتَّى انتهائي من عملي فتكون أوَّل الحاضرين. تخبرني بوجودي وأهميَّتي لديها، تبادلني رجفة الحبِّ؛ أمَّا اليوم، فمريم لم تتذكَّرني. أخرج هاتفي من جيبي الأيسر، قائمة الاتصال، أرومتي، اتصال.

يردُّ صوت أنثى من شركة سيرتيل :

- إنَّ الرقم المطلوب غير مستخدم أو خارج نطاق التغطيَّة.

نهارٌ كاملٌ ونصف ليلةٍ ما زالت متحفِّظةً بالبقاء وحيدة، بعيدةً عنِّي. استعر الخوف بي، رجفةٌ ترافق قلبي، رجفة خوفٍ وضعفٍ، هناك خطب ما سيحدث، قلبي يُخبرني بذلك.

إحساس القلب، خير دليلٍ بين طرفين جمعتهما سنواتٌ

واحتوت ذواتهم مشاعر،

الغصَّة تملأ الروح، الرعشة تصيب الجسد، الخوف يتملك الضوء في الطريق،

الغشاوة انحدرت أمام عيني، قدماي استكانت، وسلَّمت جميع قواها.

أستندُ على الرصيف، أجلس على حافته، المكان لا يسعفني الوقوف، لا أقاوم! السبب ليس ما حولي؛ الخطب روحي في مكانٍ آخر. هناك ألمٌ ما حاصل.

صوت مريم لم أسمعه، كلماتها، صورتها، ضحكتها، اليوم والوقت توقَّفا، لا شيءَ يمرُّ في غياب مريم!

حملتُ ما تبقَّى من جسدي؛ أواصل السير حتَّى غرفتي. قلبي يؤلمني، عيناي عزمتا مشاركة نبض الألم داخلي، الروح شاركت في النحيب، هناك جزءٌ منِّي غائب، أو الأصح هناك كلِّي لم يحضر اليوم! أراقب هاتفي، ويراقبني أنس والدهشة تصب وجهه. على غير عادتي لم أكلِّمه، وحالما أراد الحديث، طلبت منه تركي وحيدًا؛

فشفتاي عاجزتان عن الكلام.

أزأر وأبكي، مثل طفلٍ صغيرٍ أغضب أمَّه حين عاد إلى البيت متَّسخَ اللباس؛ فوبَّخته وعاقبته في إحدى زاويا البيت.

أبكي كمن لم أبكِ من قبل؛ فالبكاء الوحيد الذي يخفِّف حدَّة الحرج المارِّ في ضيق النفس.

أبكي، وقد خلعت كلَّ الرجولة والقوَّة من هندامي.

أستسلم للشوق وللخوف وللندم من أسئلةٍ لا أعلم جوابها، وأخشى الإجابة عليها.

ماذا فعلت؟ أين مريم، أين أنا من قلبها؟ الجواب يقتصر على البكاء، وبالحرقة على شيءٍ مرَّ بطرفة عين،

لم أدركهُ إلَّا بعد وقوعي في طيَّات جُرفه.

❖❖❖

نحن خطَّاؤون دائمًا، لا نبالي بشعور من يحبُّنا، نظلُّ على الأخطاء مع علمنا بها، لكنَّنا نسلكها؛ والحجَّة أنَّ الحبَّ يغفر!

لندرك متأخِّرين أنَّ الغفران من الله وحده، والرحمة من أسمائه، أمَّا البشر، فهم طينةٌ لا تحتمل الصفح مرارًا على الخطأ ذاته.

نحن دائمًا أنانيُّون؛ نبحث عن ثغرةٍ نُلقي بها ضعفنا وفشلنا ووهميَّتنا ولا مبالاتنا لشعور الآخرين، حينها نقول: ليت الأمس يأتي لنصلح ما ندبنا.

ليس الوقت في دائم أحواله معنا .

نستيقظ متأخِّرين عن الزلَّات وعن الدراسة وعن العمل وعن الحياة، وهذا دليل الضعف لا أكثر!

❖❖❖

الصباح يناشد عصافيره، منهم من يركض خلف حافلة المبيت التابع للشركة أو الوزارة المُثبت عندها، كموظَّفٍ أو مهندسٍ أو مستخدم، ومنهم من يحمل الأمل في عينيه ذاهبًا إلى المدرسة بيراعه الحامل للغد، وحقائبه المثقلة على كتفه التي أبطأت مشيته، ومنهم من يسيرُ الهوينى إلى جامعته، يلبس ما طاب من أجمل الموضة، منسقًا لون الحذاء كلون سيّر البنطال.

مريم على السرير الذي يبادلها كَسَله، شادًّا بلجامه على جسدها لتبقى مستلقيةً، حان وقت المحاضرة الأولى.

هادي يستيقظ على صوت أنس:

- هيَّا، حان وقت الذهاب إلى الجامعة.

يفتح هادي عينيه حتَّى المنتصف، وقد ظهرت علامات السهر حتَّى وقتٍ متأخِّرٍ على ملامح وجهه وجسده المثقل .

غدره النومُ؛ فاصطحبه معه ليريح جسده من عناء يومٍ طويلٍ، ليجيب:

- دقائق وأكون جاهزًا.

يكرِّر أنس طلبه معلِّلًا:

- حان وقت المحاضرة الأولى، سنتأخَّر!

عند الوصول إلى حرم الجامعة، يكلِّم أنس هادي وهو ينظر إليه:

- تأخَّرنا، لنذهب لشرب الشاي في الندوة.

يقولها أنس باسمًا؛ فهي عادة اعتادها مع هادي ومرَّت مدَّةٌ طويلةٌ لم تمارسا هذه العادة من جديد، لأنَّ هادي يذهب مع مريم إلى قاعة المحاضرات عادةً، وشغله الشاغل يكون مريم.

لم يعطه هادي إجابةً، إذ انشغل بإرسال رسالةٍ نصيَّةٍ إلى مريم:

- صباح الخير، اشتقتلك.

لا يعطي أنس أيَّ تعقيبٍ، بل يصمت ويكمل سيره مع هادي.

مريم بقاعة المحاضرات مع زميلاتها، اللواتي تعجَّبن من عدم وجود هادي معها والجلوس إلى جانبها.

ينير هاتف مريم، تقرأ الرسالة، تعيد الهاتف إلى الحقيبة، دون أن تلقي لها بالًا. بعد وقتٍ قصيرٍ، اتصالٌ واردٌ من الحاج إبراهيم إلى ابنته، يخبرها أنَّه حان الوقت لتذهب إلى التسوُّق تجهيزًا لخطبتها.

مضت الساعة الأولى حتَّى الظهيرة، ما من مجيب، الرسالة تم تسليمها، المُرسل إليها خارج نطاق الدوام.

انتهت المحاضرة الثانية، خرج الطلاب، هادي أمام مبنى الأغذية، تمرُّ مريم على بعد أمتار قليلة، كأنّه لم يوجد، لا تنظر إليه.

يسارع هادي اللحاق بها مناديًا:

- مريم... مريم... صباح الخير، أينكِ اليوم؟

تقف مريم مكانها، تستدير إلى مواجهة هادي، وبنبرةٍ باردةٍ يشوبها ترد:

- صباح النور .

يردُّ هادي ببسمةٍ خفيفةٍ، علَّه يُخفِّف حدَّة المعركة التي تقودها مريم – حتَّى الآن لم أشرب القهوة.

تقطع حديثه مريم:

- أهلي بانتظاري، سنذهب إلى التسوُّق.

بين لحظةٍ ولحظة، يُكذِّب هادي نفسه، يُعلِّق أفكاره ليتكلَّم:

- ألا زلتِ غاضبةً منِّي؟

تجيبه بنبرةٍ حادَّةٍ، واثقةً من إجابتها:

- لا شيء يستدعي غضبي.

تستأذنه الرحيل، لتكمل طريقها مع صديقاتها ثُمَّ إلى أهلها تجهيزًا للخطبة القادمة دون أن تُعلِمَ أحدًا بذلك.

يعود هادي خائبًا، معلِّلًا فظاعة الموقف، حدَّة مريم تغيُّرها المفاجئ، قوَّتها التي ظهرت على نحوٍ مخيفٍ إلى جانب إصرارها.

هي اللحظة التي لا نودُّ الوصول إليها.

❖❖❖

الفصل الثالث

2013

اليوم أجمل بعد حادثة المطر. هادي ومريم مفعمين بالحبِّ كعادتهما، لا يمرُّ الهواء بينهما، ولا تمرُّ أيُّ نسمةٍ إلَّا بعد أن تستأذن العاشقين قبل مرورها.

فالعادة المستحبَّة، تبادل الحديث أكثر من مرَّةٍ، وفي كلِّ مرَّةٍ كأنَّهما يتحدَّثانه للمرَّة الأولى، سواءً في أثناء الفصل الدراسي، أو خلال التواصل عبر وسائل التواصل الاجتماعيِّ، عزلةٌ فيما بينهما عن العالم. العالم عبارةٌ عن مريم تأتي الجامعة لترى هادي، وهادي يأتي الجامعة ليرى مريم، علاقةٌ شـيدت على رابطٍ روحيٍّ أزليٍّ.

ذات مرَّةٍ في الجامعة، وكعادة الأيَّام الممتلئة فيما بينهما على كرسي الخلود المقابل للشؤون الإداريَّة، بعد الانتهاء من محاضرات العملي المتعبة، جلسا يتبادلان كثيرَ الشوق قبل أن يرنو كلًا منهما إلى أهله.

الشمسُ خجولةٌ، الغيمُ خطفَ زُرقة السماء؛ فأخفى ما حصد

من نور الشمس. وسيلة الأرض أن تستمدَّ النور من مريم. الطلَّاب أغلبهم من عَلَت وجوههم البسمات والمزاح عن الحديث المخلوط بالنكات فيما بينهم، الأشجار التي شاركت رقصة الطقس لتميل أوراقَها البريَّة، رقصة عروسٍ خجولةٍ تُزفُّ إلى عريسها، الوردُ الجوري يجاري المارَّة فيمدُّهم من الجمال ما يُكمّل يومهم .

تُقاطع الصمتُ مريم زامَّةً شفتيها لهادي الذي شغلته سيجارةٌ ينفث دخانها.

- كعادتكَ التدخين أوَّل شيءٍ تقوم به.

يبتسم هادي محوِّلًا نظره إلى جانبه الأيسر نحو مريم، مدركًا أنَّ هذا الفِعل حركة توقِ الصدر الخافتِ كجانبٍ من جوانب الحبِّ ورفعته:

- أكيد لا، أوَّل شيءٍ أقوم به ذكر اسمكِ، مراجعة صورتكِ، الشوق إليكِ حتَّى وأنتِ جانبي.

تبتسم مريم ماثلة أمام الجواب الصريح بالاستسلام، الجواب معروفٌ، لكنَّ الصيغة للدلالة عليه تختلف، مبتعدةً عن عادة

التدخين لتقول:

- سأبقى جانبك؛ ما أحبُّ إلى قلبي سواك.

يردُّ هادي، ويده اليسرى تتسلَّل نحو يد مريم اليمنى:

- أحبُّكِ، ألف، حاء، باء، كاف، تساوي، أرومتي.

أرومتي، الاسم الذي كنى هادي به مريم، دليل الملكيَّة العائدة إليه، كما أنسبته مريم باسم سمرتي.

تميل برأسها صوب اليمين، تنظر إلى عينيَّ هادي والورد كَسَا خديِّها الثلجيَّين، لتجيبه خجولةً محمرَّة الخدَّين:

- وأنا.

يستفهم هادي:

- وأنتِ ماذا؟

تبتسم لتقول:

- وأنا أحبُّكَ أكثر يا سمرتي.

بعد وقتٍ من لقاء المحبَّين، يحين وقت الذهاب، في العادة يسيران نحو البيت ليقضيا الطريق معًا، ويداهما مترافقتان يدًا

واحدة. يُوصل هادي مريم قريبًا من بيتها، في ركن الدين ليكمل طريقه نحو ساروجة. يجلس قليلًا في غرفته، ثُمَّ يذهب إلى العمل مع صديقه أنس.

حالما تصل باب البيت مريم، وقبل أيَّ شيءٍ، تبعث برسالة نجدةٍ إلى هادي مفادُها اشتقتُ إليكَ سمرتي، ليردَّ هادي، وأنا اشتقتُ إليكِ، أحبُّكِ.

كبادرة تأكيدٍ ودليل حياةٍ، بأنَّ الحياة ما تزال مستمرَّةً، بالحبِّ تستمرُّ الحياة، وبالحبِّ يستمرُّ السلام.

❖❖❖

حادثة المطر

تضامن الطقس بغيثه، من مطرٍ يدلُّ على خيرِ قلوبنا وخير اللقاء. نسير تحت المطر من الحديقة الواقعة بمساكن برزة حتَّى بيتكِ في ركن الدين أنحاء ساحة الشهبندر. طوال الطريق لم تبتعد يدي عن يدكِ، الحياة تضخُ المحبَّة خلال المسير.

اليومُ حافلٌ بمطر الحبِّ ونسيم الشوق ولهفة الانتظار، التي ترتسم على أعين العاشقين.

قصَّةٌ دقَّت قلب كلَّ واحدٍ منهما للمرَّة الأولى.

فالحبُّ الذي إن وجدناه كنَّا من السعداء، هو ما يلزمنا للقضاء على أيِّ لعنةٍ، وأيِّ سوءٍ يختبئُ خلف وابل الأيَّام القادمة.

الحبُّ الذي نبحث عنه عمرًا كاملًا، ومنَّا مَن يجدُه، ومنَّا من يرى وجوده دون إدراكه؛ ومنَّا من لم يتعرَّف عليه، فيكون أقلَ حظًّا، لكنَّ بعض السوء في الظاهر هو خيرٌ.

الحبُّ سلاحُ قوَّةٍ، وأداة ضعفٍ في وقتٍ واحدٍ. الشوق ضعفٌ يوهن الجسد، ويجعل العاشق رهيفًا للقاء بآسر حياته، فيعيش مع

ذاكرته كلَّ لحظةٍ، روحه تجوب المكان فقط أمَّا جسده، تحتجزه المسافات.

عظيمٌ أيُّها الحبُّ،

قويٌّ أيُّها الحبُّ، وسلاحك ضعف المحبِّين.

نسلكُ طريقَك الطويلِ، مبهمين نهايته،

راجين قُوت الشعور بما يرضيك من شغفٍ وحنينٍ.

❖❖❖

هادي...

أراقبكِ يا مريم وأنتِ جانبي، يدي اليمنى بيدكِ اليسرى. جميلةٌ تفاصيل وجهك ببياضه واحمراره. يداك ناعمتان مثل وردٍ حطَّ على أناملك زمنًا يستكين من عناء البشر، جسدُكِ العفيف كياقوتٍ مختبئٍ داخل عمق البحار، شفتاكِ شهدٌ صنعته ملكات العسل، طيِّبُ الذوق ورقيق الملمس.

نعومةٌ كاملةٌ تختصرينها فيكِ، وجاذبيَّةٌ أُسلم قواي لها، كالعاجز الذي وصل آخر العمر ما له سوى عُكَّازه يتَّكئُ عليه، راضيًا بحاله ومقتنعًا بقوَّته التي هاجرته.

قصيدةٌ نظمها امرؤ القيس، قرأها أبو القاسم الشابي، أحبَّها المتنبي، أحتفظُ بها داخل قلبي، لتكونَ حروفي، وأبجديتي!

تبتسمين في لحظاتٍ ليبتسمَ الكون لي. أنسى عناءَ الحياة، وأنسى مقادير اللفظ. أنفثُ الدخان من شفتيَّ، تمدِّين يدكِ اليسرى لتأخذي السيجارة، تُمسكينها، وبنبرة دفءٍ يشوبها الخوف على صحَّتي تقولين:

- أكثرت من التدخين، خفِّف هذه العادة؛ أخاف على صوتِك وأغار منها إذ تقاسمني الحبَّ داخلك.

أُجيب كطفلٍ وديعٍ لا حيلة لديه ولا قوَّة :

- سأحاول لأجلك، ومن الآن ستظل علبة السجائر في حقيبتكِ، لا أُدخِّن إلَّا إن سمحتِ بذلك.

تنظرين نحوي وقد فهمتِ اللعبة التي أرسمها في عقلي، تزمِّين شفتيكِ وبتمعُّن عينيكِ في عيني :

- والولاعة مع علبة السجائر! خشيةَ علبةٍ أخرى تختبئ مع أحد زملائنا.

ابتسم مجيبًا أنَّ سور قلعتي رغم جدرانه، كَشفَ ما داخله من أسرار :

- ولكِ ذلك العلبة، والقداحة.

أطوي شفتاي، أشدُّ يدي على يدكِ؛ لنقف قليلًا تحت غطاء ليُبعد حبَّات المطر بعد أن تبلَّلنا لدرجةٍ كبيرةٍ. تتواجه عينيَّ بعينيك، وجسدي مقابلٌ لطُهرك.

أُمسك يدكِ اليمين بيدي اليسرى قائلًا:

- أنتظرُ الغد بفارغ الصبر، أتسلَّلُ إلى جانبك ليلًا، أجمعُ تفاصيلك لتكوني دائمًا وأبدًا، لا أستأذن أباكِ لأخبرك كم أحبُّك، ولا أخشاه! نحتسي قهوتنا صباحًا بعد إعدادها بيدي لكِ، أُعطيها من سُمرتي، لتَهَبيها من سحركِ ودفئكِ، فتصبح الألذَّ لكِ ولي.

مغمضةٌ عينيِّكِ، شهيقكِ طويلٌ تسحبين الأوكسجين ليمتلئ صدرك، محمرةٌ خجولةٌ، هادئةٌ رائقةٌ، تصورتِ معي المشهد أيضًا!

ذهبنا إليه معًا في اللحظة ذاتها، يعاد النظر بعد أن تعود الجفنات إلى موضعها متمنيَّةً بإذنه تعالى :

- إن شاء الله.

أكملنا السير بعد توقُّف المطر، كلٌّ منَّا إلى تتمَّة يومه وعادة الشوق بيننا.

يضيء الهاتف المحمول؛ إثر وصول رسالةٍ نصيَّة منكِ :

- وصلتُ بيتنا يا سمرتي، اشتقتُ إليكَ، متَّى يأتي الغد؟

أبعثُ الردَّ فورًا دون تفكيرٍ يلزم الإجابة، لنتنفَّس الصعداء كلينا، بعد أن جعلتني أرتعش. واجبي أن أبادلها رعشة الحبِّ، لأكتب :

- كوني بخير، وأنا دائم الشوق إلى أرومتي.

ألم أخبركِ تأجيل الزيارة إلى أهلك؟ فإنِّي أخاف تأخُّر وقت الزيارة فيطول عذابي، أنتِ عمري.

❖❖❖

مريم...

وصلت رسالةٌ من سمرتي، على الفور أطالعها وأقرأ محتواها. ابتسمتُ، وقد أخذني سمرتي إلى أرضه،

الأرض الدائمة الحياة، لا شجر فيها يهرم، أو أحلامًا قيد الانتظار، أبطالها أنا وهادي؛ يعلم موافقتي على آماله وأمانيه، هي أحلامي التي تراودني أيضًا، أرغب بها وبشدَّةٍ، ما بين الحياة، والحياة تجعلني كلماتك يا هادي.

حلمي أنت، حريَّتي أنت، حياتي أنت.

ابتسامتي لا تُفارقني، روحي هائمةٌ. أخلع ملابسي من الجاكيت المبلَّلة التركواز، بنطالي الأزرق الجينز الغامق، وألبس بيجامتي السوداء الصوفيَّة. هادي سيذهب إلى العمل، وأنا سأفكِّر به. أكتب له في دفتر المذكِّرات خاصَّتي، لتكون هديَّته القادمة، حتَّى يأتي والدي الحاج لأجلس مع عائلتي حتَّى يحلَّ الليل؛ وأحادث سمرتي إلى منتصف الليل، لتنام أحلامنا البيضاء معنا.

❖❖❖

هادي...

أخافُ عليكِ من نسمة الهواء إذا هبَّت، وأغار منها! تُلامسكِ دون إذنٍ ودون حقٍّ، وليَّ الحقُّ بأن أحبَّك فقط ولا شيء غيري يشاركني قلبكِ!

مجنونٌ وأكثر.

حدودُ شفتيكِ هما مأواي.

عيناكِ هما ملفاي.

يداكِ أمانٍ أعيشها بعيدًا عن العالم.

وأنتِ؟

أنتِ كلُّ الكلِّ في حياتي.

في اليوم الأوَّل الذي رأيتكِ فيه، شيءٌ ما تغيَّر.

النظرةُ إلى الطبيعة توهَّجت، المعالم من حولي شفافةٌ ناصعةٌ، القمر خجولٌ يرسمُ وجهكِ بأدقِّ تفاصيله، الخدَّان ورديَّان، الوجه دائريٌّ، العين سوداء؛ ظلامها انعكاسي الساكن الذي يبعث السكينة دليلَ خلودٍ يملأ الروح.

دليلَ مشتاقٍ يبحث عنكِ، يُقلِّب الأحاديث كلمةً كلمة، وحرفًا تلو حرفٍ!

أتصدِّقين أني دائم الفرح؟

لأنِّي وجدتكِ، وجدتُ الفرح الذي يملأ الروح .

وجدتُ ذاتي داخلك بعد انتظار.

الأناسُ حولي مبتسمون، على غير العادة!

الأرضُ خضراء في فصولها الأربع، دافئةٌ في شعورها.

البيوتُ متلاصقةٌ، كما أنا وأنتِ.

كلُّ شيءٍ حولي يذكِّرني بكِ.

أوَّلُ البيت، صوت أبي، أعين المارَّة، نشرة الأخبار، عامل المطعم، صوت الزبائن، همس الباب وأنا عائدٌ لغرفتي كلماتُ أنس وأحاديثه،

إنارة الشوارع، معالم الطريق، كلُّ شيء أنتِ يا مريم!

مريم حبيبتي التي حملتِ عبئي قبلي، تحمَّلتِ ضعفي وفقري، وأحلامي، بجانبي أنتِ ولو بيننا مسافة ألف عامٍ.

روحي نحوكِ حائمةٌ، كما أنا هائمٌ فيكِ.

أرومتي...

حبِّي الأزليُّ الأوليُّ الأمديُّ.

أغلقَ هادي الرسالة الورقيَّة بعد انتهاءه من قرائتها، يتوجَّه بعينيه نحو مريم، التي لم ترمش عينيّها قطُّ، أو تسمع أيَّ صوتٍ آخر سوى صوت هادي وكلماته، التي تدخل القلب فورَ لفظه لها .

تمدُّ كلتا يديها، لتحتضنا يدَّ هادي اليسرى، دون أيِّ كلامٍ؛ فالكلام هنا يفسد لحظات السفرِ إلى البعيدِ الحالمِ .

تقترب مريم لتكون ملازمةً له، لا وقت للنسيم المرور بينهما، لا وقت للكلام، قد يخاف الكلام من حروفه.

دقائق الصمت تطول حين غفوة عن الزمن، بين هدهدي الربيع، لتمدَّ مريم يدها اليسرى وتلتقط الرسالة الورقيَّة من يد هادي اليمنى، تضعها في حقيبتها، لتخرج رسالةً ورقيَّةً، وبصوتٍ ناعمٍ خافت، كيلا يسمع المارَّة المسترقين للسمع حديثهما، تقرأ:

حبيبي هادي.. لن أستطيع البوحَ أمامك، لذا اخترتُ الكتابةَ

سبيلًا للبوح عمّا يسري داخلي.

قد تكون كلمة أحبُّك ناقصةً جدًّا أمام ما أودُّه.

إنَّك السبب الذي يجعلني أفرح كثيرًا، أسهرُ كثيرًا، أبتسمُ كثيرًا، شاردةً في السماء، أبحثُ عن مأوى يشدُّ خيالي إليك.

يكوي عقليَّتي بالتنكيل عمَّا يحدث في.

أحبُّكَ، ناقصةٌ جدًا إلى الحدِّ الذي لا يجمع لحظةً واحدةً من ذاكرتي وتصوُّراتي إليك.

أحبُّكَ، تُخفِّف رغم نقصِها شيئًا ينصاعُ خارج إرادتي، وخارج بحوريَ المجهولة، التي مُنِعتُ المساس بها.

ليت الليل أحنُّ عليَّ منك، لكنَّه قاسٍ، وسيبقى قاسيًا بحملي إلى التوق فأبحث عنك.

تأخَّرتُ في البوح هكذا، وتأخَّرت في الكلمات، لكنَّها سبيلي الوحيد إليك؛ لأنفض قليلًا من الندى على قلبي مواصلةً الحبَّ إليك.

اخترتُ عينيكَ مكانًا بدل الليل،

جسدكَ مخبئي من هذه الدنيا،

عد إليَّ سالمًا، فلا بلاد دونك.

أسيرُ دون جدوى، أُخبئ دمعي، أخبئ نفسي عمَّن حولي؛ أخشى أن يروك في عيوني، لم أعلم أنَّ الحبَّ هكذا .

جنونٌ يأخذُ الجنون، وعقلٌ يمتلئُ تفكيرًا. أقضي ساعات الليل محاولةً النوم، لكن كلماتك تبوح، لتكتظ العبرات على سائر جسدي، بداية من عينيَّ إلى خدَّيَّ، اللذان أعطيتَهما الحياةَ بأناملك،

لكم تشتاقُ إليك؟!

أرجوك عُد، لا تغبْ أكثر؛ فأكثر قاتلة علي.

لم أنتبه أني التقيتك، كُنت دومًا جانبي.

نعم، كنت أحبُّك، والآن أحبُّك، وإلى ما شاء الله، سأبقى أحبُّك.

تطوي ورقتها، تنثر عليها عطرها (أتيرنتي)؛ لتفوح الرائحة أكثرًا، وتضعها بيد هادي اليسرى، وتحتضن اليدُّ اليدَّ الأخرى كما

العادة، لتخبره أنَّها كُتِبَت حين سفره إلى أهله، لتكتمل الغفوة من جديد.

❖❖❖

2016

مريم

مرَّ الوقت بمرارةٍ، رغم الفرح الذي اصطحب والديَّ وصهري؛ أمَّا عائشة جامدةٌ معي. وجهي كان رماديًّا في أثناء خطبتي، وقبلها حين جلوسي قبالة حسن حين زيارة أهله؛ لطلبي رسميًّا وقراءة الفاتحة. خطيبي الآن صار يحادثني يوميًّا بحجَّة. يتكلَّم عن جمال عيني؛ لا أحبِّذها من لسانه، غير هادي الذي روحه تخرج مع أيَّ كلمةٍ يقولها.

أنزعُ خاتم الخطبة من يدي اليمنى الذهب جميلٌ، لكن هناك ما هو أجمل، صوتُ هادي الذي عمدتُ عدم الردِّ على رسائله أو اتصالاته. أهرع بعيدًا عنه في الجامعة، أدخل متأخِّرةً عن المحاضرة الأولى، وأستأذن صديقاتي فورًا، أذهب إلى والدي الذي ينتظرني، حتَّى صديقاتي لا أرغب بمحادثتهن، لا شعور فرحٍ يتخلَّلُ روحي، أظنُّ سفرها حين قلتُ:

- نعم أوافق.

وجب عليَّ الرفض، أو ألَّا أفكِّرَ أبدًا بمعاقبة هادي؛ فها أنا أُعاقبُ نفسي.

والدي، ما زالَ لا يراني مدلَّلته، في إجازةٍ عن قلبه. اتصاله وسؤاله حين أكون في الجامعة كلَّ محاضرةٍ لم تكن اطمئنانًا؛ بل السجن بالنسبة لي. انتظاره لي وأخذي إلى البيت بسيَّارته، إدارته اقتصرت حاليًّا على مراقبة شؤوني وتحرُّكاتي، أيبدو أنَّ جسدي بلا روح لهذه الدرجة، أو علامةً من الحاج أنَّ الانسحاب من اللعبة بالموت فقط؟! كيف يعلم أنّي أفكِّر بهذا أيضًا؟

الساعة الثانية عشرة منتصف الليل.

أسيرُ بغرفتي ذهابًا وإيابًا على نحوٍ دائريٍّ حول سريري، أفكِّر من لحظة الغداء المشؤوم إلى الآن، أنظر إلى الخاتم الذي وضعته على الطاولة؛ فتنهض صورة هادي باسمةً ابتسامةَ ألمٍ حادٍّ، كأنَّ سكِّينًا أصابَ صدرهُ، يُحاول التكلُّم، دون جدوى؛ فإصابتُهُ بالغةٌ! والسبب؟ أنا من طعنته بهذه السكين. أهربُ من الصورة فورًا، أرمي جسدي على السرير، أُمسك الهاتف المحمول أبحثُ في صور

ورد هادي التي يباغتني بها، دون سببٍ، إلى أن أنتهي من تقليب صور الورد الزهريِّ الناعم، مع أغصانه الماثلة على جنبها، خجولةً مستسلمةً للورقة التي تُشكِّل محرابها الأخير.

قرَّرتُ فتح حسابي على الفيسبوك، يذكِّرني به، حتَّى أنت تذكِّرني بسمرتي، أبتسمُ ابتسامة هادي الممتلئة حرقةً، حين أذكر أنَّ هذا الحساب لأجل سمرتي قد أنشأتُهُ، بعد أن طلب منِّي رقم هاتفي الشخصيَّ ثلاث مرَّاتٍ متتاليةً بفتراتٍ زمنيَّةٍ مختلفةٍ؛ لأرفض طلبه، والرفض ليس إلَّا دلالاً وغنجًا لزيادة إصرار هادي، وشدَّه للبوح بعد انتظاري الطويل بسرِّ قلبه. أظنُّه يعلم ذلك؛ إذ يتلوَّن خجلًا بعد كلِّ طلبٍ يعود به خاسرًا، ليعودَ بجنوده إلى الوراء، وينتظر فرصةً أخرى للهجوم على رقعتي البيضاء.

بخسارته المرة الثالثة، أخفى شيئًا من الخسارة حين طلبت بعد رفضَ طلب الرقم ورقةً من دفتره، لأكتب اسم حسابي maryam ma، الحساب الذي لم يكن موجودًا، ولم يكن لديَّ صفحةٌ على الفيسبوك، ولأجلكَ صار لي، حين عودتي، سارعت فورًا لإنشاء

حسابي الشخصي، وما إن فعَّلت الحساب، صرتُ أنتظرك.

طفلةٌ صغيرةٌ بطاقيَّةٍ سوداء، غمَّازتان تعتمران خدَّيها، ويدها صغيرةٌ ناعمةٌ، كانت صورة حسابكَ وإلى الآن لم تبدِّلها. قبل أن أوافق على الطلب، كانت رسالتك وصلت:

(هذه ابنتنا هبة، جميلةٌ كأمِّها، أحبُّها لأنَّها ثمرتكِ الطيِّبة، وأغار من حبِّكِ لها)

يرتعش جسدي، وروحي تُعاد السُكنَ داخله. نبضةٌ كهربائيَّةٌ بتوتُّر الحنين أودت بي إلى الحياة. أفتح عينيَّ اللتين أصابهما ألمُ الذكرى ظهرت غيمةٌ، فسلمتُ الأمر لتسقط العبرات من تلقاء نفسها.

أحدِّثُ نفسي من جديد: كان عليَّ التأنِّي، اشتقت لسمرتي، ماذا أفعل يا الله؟ إلى متَّى سأظلُّ أتهرَّب منه، وأنا المشتاقة إليه بكلِّ ما بلغت من شعورٍ وتوقٍ؟ هو من جعل لحياتي حياةً، ولقلبي نبضًا، ولروحي روحًا.

أحاولُ الهَرَبَ من تفكيري؛ فأتصفَّح آخر الأخبار على

الفيسبوك، وإذ بيدي تأخذني إلى هادي، إذ نشر منذ دقائق قليلةٍ على صفحته :

(تأتيني في حلمي، وآتيكِ في واقعي، فتظلمينِ. سأظلُّ أراكِ بقلبي، الذي ملكتِ نبضه، ومهما تُقسين عليَّ؛ ستجديني)

منذ فترة لم أكلمكَ أو أعركَ انتباهًا، ورغم هذا لم تعطِ لها بالًا، معك حقٌّ، فما بيننا أعظم أن يعطي لأيِّ الأمور أحقيَّة، تنهَّدتُ حالما قرأتُ سطريكَ؛ فقد خفَّفت العناء، وددت لو أخبركَ أنِّي أيضًا حالمةٌ بكَ، وأريد أن آتيك واقعًا؛ لكنِّي أخاف أن أخسركَ على إثرها، فحجَّتي جدُّ صغيرةٌ أن أعاقبك.

أبعدتُ الهاتف عن يدي، أكمل تقلُّبي يمينًا ويسارًا، ثُمَّ على ظهري كما أقلِّبُ الأفكار في عقلي، حتَّى خلدت إلى النوم، في وقتٍ متأخِّرٍ.

❖❖❖

يسير الوقت ببطءٍ، لا لذَّةً تكسوه. أصبحَتْ حياتي عاديَّةً بنظري، مثاليَّةً بنظر أهلي، أمَّا عائشة فهي ستفور غضبان؛ لا تنظر إليّ، لا تكلمني، ولا تمدُّ بعضًا من وقتها لمساندتي، كان عليَّ إعداد فنجان القهوة، أنتهزُ فرصة الصباح ونهاية امتحان العملي بعطلة الأيَّام العشرة تحضيرًا للامتحان النظريِّ.

أحملُ القهوة السادة المعتادة، كما لو أنَّها لسمرتي الذي لا يفارق يومي. أجلسُ جانب عائشة على الكرسيِّ المجاور، وفي بغتةٍ أقول:

– أتفكِّرين بي؟ لا سيَّما أنّي أصبحت اللا وجود في هذا البيت .

تنظر عائشة شزرًا؛ لا تعجبها جملتي، لتردَّ:

– نعم أفكِّر بكِ؛ لأنَّكِ موجودةٌ، فأنتِ أختي التي جَنَت على ذاتها.

دون سابق إنذارٍ ودون مجابهةٍ.

خلال سطر أسقطت عائشة جميع أوراقي، لأصمد جانبًا دون تعليق، أو ردٍّ بأن أدافع. هربتُ أملأ فنجاني القهوة، وأضع أحدهما

قريبًا منها، لتعود؛ فتقول ناظرة إليَّ:

- عقاب الحبيب ليس هكذا؛ أن تُحبَّ هو أن تسامح، أن تصفح، العفو عند المقدرة. لا أدافع عن هادي بما فعله، بل أدافع عن قلبك في حبِّه، أيُّ جنون هذا الذي وضعتِ حياتكِ به؟ لم أتمنَّ أن تخطئي خطئي الذي إلى الآن لا أغفره، الحقُّ أنِّي لم أخبركِ عن حبِّي الذي يفجع داخلي بعد السنين التسع ولم أحذِّرك. ها أنا أتذكَّر ولا أنسى، رغم أنّي لا أقوى على الحديث بهذا الأمر؛ فأنا متزوِّجةٌ من غيره، وأخشى من لعنة أبي تطالُني، لهذا خنعت إلى أمره الذي أوصلني لهذه النتيجة؛ ولا أحبِّذ خنوعك لأمره.

أواظبُ على الصمت لوهلةٍ والدهشة مصابي، ثُمَّ أعود أستفهم:

- أيُّ حبٍّ؟ ولماذا تزوَّجتِ غيره؟

ترمقني بنظرة حسرةٍ لتجيب :

- لم أتزوَّج خالد ابن عمي؛ لأنَّ أبانا لا يريد هذا، ولأنَّني لم

أقاوم، بل على العكس، كما فعلتِ، وافقتُ طوعًا نتيجة حربٍ باردةٍ نشبها والدي، وكنتُ ضعيفةً جدًّا. دعكِ منِّي فأنا تزوجت منذ تسعة سنين، زوجي يدلِّلني ولا يتعبني، لكنَّني لا أحبُّه، رغم كميَّة الحبِّ الذي يُكنُّه لي؛ لهذا ينصاع لي. حين نشب جدالٌ حول حسن، حذَّرته التلاعب بقرارك، لهذا لم يكن له أي دورٍ في موافقتكِ؛ بل وقف محايدًا.

- أعلم يا مريم، من خلال تصرفاتكِ نتيجة الخطبة، كيف تغيَّرتِ وتبدَّل لونك الدافئ إلى لونٍ باردٍ، مع أنَّها فترةٌ لا تتعدَّى الأيَّام!

يعمُّ سكونها لحظاتٍ، لأعود بها وأكسر العطف الذي حلَّقته كلماتها، الدالَّة على خير حسِّها تجاهي، فنسيت أنَّها المبتعدة كما حالي مع هادي. شدَّةُ الألم لا تخبرنا، إنَّما تجبرنا على خيارها، لا كلمات تستوعب الموضع الذي أنا فيه، لهذا أردتُ مساندة عائشة في الحروب التي تدور داخلي، تُخرج الكلمات الزائغة حدَّ التعب من

قلبي، علَّها تجد من يداوي مَدماها:

- لا أحبُّ حسن، لا أريد استمرار الخطبة، حتَّى الآن لم أودَّ مجالسته، وحديثي يقتصر خلال الشاشة الإلكترونيَّة بحجة دراستي، هادي قريبٌ أكثر في نقاطه حروفه.

تألف عائشة كلماتي، لتجيب:

- ولن تحبِّيه، ولا حلَّ لديكِ سوى الدعاء ألَّا يتمَّ أمر الزواج؛ أبانا لن يوافق على فسخ الخطوبة.

جملتها صحيحةٌ؛ فهي تعرف أبي أكثر منِّي، لا حلَّ سوى أن يعتذر حسن عن إتمام الخطبة فالزواج، طال صمتي لتنظر عائشة نحوي متسائلةً:

- ماذا فعلَ هادي حين أخبرتِهِ بذلك؟

رددت على سؤالها بنبرة خطأٍ متوتِّرةٍ:

- لم أخبره.

نظرت إليَّ في دهشةٍ مكرِّرةً إجابتي بتعجُّبٍ:

- لم تخبريه!

أكملت إجابتي بعد استجماع قواي :

- ولم أحادثه؛ أتجنَّبه دائمًا، وكلُّ مرَّةٍ يحادثني في الجامعة أصدُّه بحجَّة ذهابي إلى البيت، تركته معلَّقًا بين الحيرة واليأس، لا أعلم ماذا أخبره أو كيف؛ أخشى معاقبتي بهجره أيضًا، ما زال يحاول التحدُّث معي على الهاتف، ولا أجيبه أبدًا.

نظرت عائشة إلي في حيرةٍ بالغةٍ، وهي تزم شفتيها، عابسة الوجه، وبصيغة الأمر قالت:

- أخبريه.

سألتها بصيغة الجواب :

- لا أريد أن يُجنَّ، أنتِ لا تعلمين هادي ومدى غيرته، تصوَّري أن أقول خُطِبتُ لغيره، أوَّل ما سيسألني عنه ألمس يدكِ؟ وافقتِ على غيري، أردتِ التخلُّص منِّي!

- يجنُّ على سببٍ، خيرٌ من أن يُجنَّ بلا سببٍ؛ حينها يُعلِمُكِ حقيقة شعوره ومدى تعلُّقه بكِ، على الأقل يساندك في اختبار حبِّكما الذي انحال إلى الصعوبة.

أساير جوابها؛ لأعلمها على تنصُّتي على هادي وتتبُّع أخباره:

- ينتظرني الآن، يعتقد أنَّها أيَّامٌ ستمضي ونعود معًا كما كنَّا.

تقاطع حديثي لتستفهم:

- أتعتقدين أنَّها أيَّامٌ يا مريم؟ مضت عشرة أيَّامٍ، يجب أن تنتهي إذن هذه الأيَّام، لا تخطِئي خطأً آخر وتخفي حقيقةً يجب أن يعلمها هادي. صارحيه بصدقٍ وأخبريه عن أيَّامك التائهة دونه؛ ليقف بجانبكِ، عسى الله أن يجمعكما من جديد، رغم الفرصة التي قلَّت نجاتها لا سيَّما بعد خاتم الخطوبة.

أتعبتني كلمات عائشة مع أنَّها أيضًا أسندتني، وخفَّفت من شكوتي. الأمر في غاية الصعوبة؛ حسن خطيبي، وهادي حبيبي.

الوقتُ ينفدُ من جعبتي؛ بعد انتهاء الفصل الدراسي الثاني، الاتفاق إتمام عقد القران بيننا، وهي مصيبةٌ أكبر .

لمَ أفكِّر بتلك الفترة!

حالي الآن لا أُحسد عليه، مأزقٌ وضعت قلبي به.

استأذنت عائشة وذهبت إلى غرفتي، أطالع كتب الجامعة، أحتاج أيَّ شيءٍ لأهرب من حالي المرثية.

❖❖❖

محاولاتي بائسةٌ في النجاة؛ أيُّ صفحةٍ أتليها أرى وجهكَ، فيسافرُ عقلي نحو كلامنا، لقائنا، وأماكن هبَّ عليها نسيم العشق. الاحتمالات واسعةٌ، وأنا في المكان الضيِّق الذي يرى ما حولَهُ دون مساسه والاقتراب منه، استسلمتُ وقد خارت قواي. الخطط المحكمة فاشلةٌ، محاولات الردِّ لنيل أقلِّ فرصةٍ للنجاة باتت محتومة الفشل.

يعودُ السؤال في ذهني، لماذا حطَّمتُ القصور المشيَّدة؟ أُعلِّل أنَّه ليس خطئي؛ هادي دفعني إلى الجنون كي أسلك هذا الطريق، أعودُ أعاتبُ ذاتي:

- لا، هادي لا عتاب يدينه، الحقُّ كلُّه على عاتقي!

فيحادثني طيفي من جديد وقد زارني، مزروعًا أمامي، خلال مرآتي التي جلستُ على الكرسي المواجه لها:

- هادي كرَّر الخطأ رغم-تنبيهكِ له، لم يحسب لغيرتكِ أيَّ بالٍ، بل ظلَّ يعاود التصرُّف مرَّةً واثنتين وثلاثة. عليه أن يتحمَّل نتيجة فعلته، ويداوم اللقاء مع إلهام إذن!

ثُمَّ أعاتبُ من يقابل المرآة:

- مهما يكن، ما وجبَ عليَّ وواجبي، معالجة الأمور بهذا الفعل. الحبُّ يغفر كما قالت عائشة، ولو ألف مرَّةٍ، قيمتي لديه كبيرةٌ، ورغم-ما فعلته، يُحبُّني.

الحبُّ ألا أصلح تصرُّفه الخاطئ بكبوةٍ أعظم. تصرُّفي بُني على خطأٍ، وما بُني على خطأ؛ نتيجته خاطئةٌ. تعجَّلتُ القرار والإدانة، لماذا نقتل الأشياء الجميلة التي نعيشها، بلحظةٍ غشي على الفؤاد منبضه؛ لنتخلَّى عن دماءٍ دفقت من لهيب معاناته؟ يطغى علينا ردُّ الدين دائمًا، بالسوء وبالظلمة، لا بالهداية والصفح.

خلال لحظةٍ ننسى جميع الكلام، كلَّ الشعور، لنقسوا على من نحبُّ قسوة طمعٍ وتملُّك، الحبُّ ليس منعك عن غيري، الحبُّ أن أجعلك تنسى الدنيا ولا تلتفت إلَّا إليَّ، تكن لي دون طلبٍ مقدَّمٍ منِّي، فالقلوب لا تتصل بالكلمات ولا تتَّحد إلَّا خلال أفعال، وهذا ما ينقصنا وكان ناقصًا في تصرُّفي بمثولي نحو الظلام؛ فالظلام يقتل الحبَّ، لأنَّ الحبَّ من نورٍ! الظلام الذي أسيرهُ خالية

الوفاض، تُصفرُ الريح زئير مفترسٍ يبحثُ عن طعامه .

نواح مالك الحزين فَقَدَ ناظريه، وعذاب فقيرٍ آست عليه لياليه.

أهربُ من المرآة إلى طاولة الدراسة، أفتحُ أيَّ كتابٍ أمامي .

لا أريدُ التفكير، أُطالب بالهدوء داخل مدن عقلي، كثرة التفكير تزيد الأمر صعوبةً، لكنَّ القرار ليس بأمرٍ منِّي؛ إنَّما شيءٌ ينصاع خارج حُكمي ورغبتي، فما لي إلَّا الاستسلام.

أُمسك القلم، أقرأ اسم المادة من غلافها، كيماء الأغذية، أُقلِّبُ صفحاتَها، لم أفهم شيئًا رغم حضوري جميع المحاضرات هذه المادة، يجب أن أسأل هادي.

بين لحظةٍ وأخرى، ابتسمت ابتسامةً معهودةً، لأقول بصوتٍ خافتٍ:

- -لقد عدتُ لهادي! حتَّى هنا يساقُ تفكيري إليكَ .

أغلقتُ الكتاب، ذهبت إلى سريري، أحاولُ أخذ غفوةٍ؛ وحدها التي تقوى على الحُكم بعدم التفكير.

❖❖❖

الفرار ليس منك، إنَّما الفرار إليكَ! أهربُ من التفكير بكَ إلى الحضور معكَ، في الفكرة مختلفين دائمًا، ورغم ذلك؛ متوافقين. أنتَ النار وأنا الماء، أنتَ الصيف وأنا الشتاء، أنتَ القصيدة وأنا اللحن، مختلفين لكنَّنا مكمِّلين لبعضنا .

أتصدِّقُني يا بعيدًا عنِّي، أنِّي أدركت الآن معنى الحبِّ أكثر؟ رغم الألم الذي أحياه، لكنَّه لذيذٌ على يديكَ ملءَ التعب!

نقطةٌ منكَ تكفيني لأراجع ما مضى، أجمعُ حجارة مملكتي على الرقعة، فأعيدُ ترتيبها من جديدٍ، الملكة تقف جانب الوزير ممسكةً يدَّهُ، محجوزةُ الحركة دونَه، هو حركتها وقائدُ حربها؛ لكنَّ اللعبة هنا لا ترتكز، كيف تتحرَّك أنت؟ إنَّما ماذا سأفعلُ أنا؟ وأنا التي سُحبت بإرادتي إلى سجني، لتظلَّ الحجارة على رقعتها دون حراكٍ.

حان لي أن أُغيِّرَ تمدُّدي على السرير. الساعة الثالثة فجرًا، النوم لا يجالسني هذه الأيَّام، غائبًا أيضًا كما هادي، أفاتش الحائط الراقد أمام وجهتي؛ لربَّما يحادثني، فأجمعُ قواي على الحركة، لكن ما من مجيب. ألتفتُ حولي يمينًا ويسارًا، ثُمَّ أضعُ يديّ على خدي، أشعرُ

بالتعب، لم لا أكمل خطَّتي؟ أمشي إلى الـــوراء،

دقَّاتُ قلبي تتحدَّث: هادي، هادي هادي، سمرتي، سمرتي سمرتي. حتَّى النبض يخبرني الوجهةَ الصعبة، لكن كيف الطريق المعبَّد داخلها؟ ما من أجوبةٍ! موعدي مع الليل ليس إلَّا يومًا آخرَ، يضافُ على ذمَّةِ حسن.

أُبعد يديَّ عن خدي، أغمض عينيَّ وأستلقي على ظهري، ناظرةً إلى أعلى الغرفة، أرسم المشهد الذي يأتي على ذرَّات الهواء فيبعثرها على نحوٍ يليق بالتشتُّت المحيط بما حولي .

نسير عائدين من مكتبةٍ صديقةٍ، أنا وهادي. يدَه اليسرى بيدي اليمنى، يلبس بنطاله الأزرق الفاتح مع قميصٍ سماويٍّ وجاكيت أسود. ألبسُ بنطالي الأزرق الغامق والمانطو الرماديَّ. نعبر إلى الطرف الآخر من الشارع لنعاكسه مرَّةً أخرى في طريقنا إلى الحديقة المكلَّلة، السور أسود يُحيط الجوانب، والباب حديديٌّ مفتوحٌ على مصراعيه. نحو اليدِّ الشمال خمسُ درجاتٍ، أرضيَّةٍ مستويةٍ مسافة خمسة أمتار، ثُمَّ أربع درجاتٍ لنصل إلى الساحة

الثالثة الجانبيَّة، نحو اليد الشمال الكرسيُّ الخشبيُّ الثالث في منتصف الزاوية. نجلس مستمتعين بذرَّات الهواء الرطبة متمسِّكين بآمال حبٍّ يحيا ويدوم داخل ذواتنا العطشى إلى الحياة.

يجلسُ سمرتي على جانبي الأيمن، مانعًا نسيم الشتاء الهادئ من المرور بيننا. تشاهد عيناه أشيائي من كفين، وخدَّين، وعينين، وشفتين، كان الطامع بكلِّ ما أحتويه. يرمقه بنظراتٍ لا تساوم الفرار عنها. أُعلِّل حبَّه الدامي، وأفسِّر استسلامي لحبِّنا العذريِّ.

تتناثرُ ذرَّات الذاكرة المبعثرة لتستعيد ترتيبًا آخرَ.

تنورةٌ زهريَّة، وكنزة زهريَّة فاتحةٌ بألوان فاتحةٍ، يلبس هادي لباسه المعتاد البنطال الأزرق والقميص السماوي، نظَّارته السوداء ذات الإطارات الطبيَّة. نسيرُ في الممرِّ الرئيسيِّ للجامعة متَّجهيَن نحو الطابق الأوَّل، قسم علوم البستنة؛ لحضور محاضرة إنتاج الخضار العمليِّ في مخبر الخضار. نحو اليمين مسافة خمسة وعشرين مترًا، يُدخِّن هادي سيجارته، مُميلًا عينيه يمينًا ويسارًا، ينظرُ من خلال النوافذ المسوَّرة على طول الخمسة والعشرين مترًا، يرى

شجر السرو والإزدرخت البري والتوت الشامي، ثُمَّ درجًا من عشرين درجةً، باب قسم علوم البستنة؛ ثُمَّ إلى اليسار المخبر الثاني على اليمين في الطابق الأوَّل. نجلس على المقعد الثالث متقاربين، كزوج حمامٍ، كلٌّ منَّا يضع أمامه دفتره.

هادي يمسكُ قلم رصاصٍ، وأنا قلمًا أزرق.

يكتبُ هادي على دفتره ليسألني ويحادثني، فأردُّ بأجوبةٍ وأحاديث أخطُّها على دفتري الذي أمامي. لا نأبه بمن حولنا، حتَّى الوقت لا نشعر بمروره.

تلتفُ الذرات المتناثرة حول مركزها، لتبتعد عن صورةٍ تتخلَّل ابتسامتين صافيتين، حتَّى آخر ما يتبقَّى هي الشفاه التي تقترب من بعضها، وحين الوصول الشفة إلى الشفة؛ تتبعثر لينتهي المشهد.

تغفو العين دون مقاومةٍ، تستبيح حقَّها في النوم لأصبح على خير، إن شاء الله.

❖❖❖

أصحو متأخِّرةً متأمِّلةً عدم النهوض. يقتاتُ السهدُ من عيني والروح تتلظَّى، أغسلُ وجهي بماءٍ باردٍ لعلَّني أصحو من الكابوس المُلمِّ بي.

أعودُ تجاه غرفتي وسرير نومي، أُراجع الأمس بلحظاته التي لا تُنسى .

حان وقت النهوض؛ فقبيل المغرب لدي موعدٌ مع حسن خطيبي، بطلبٍ منه إلى والدي الذي ما انفكَّ عن التفكير لحظةً واحدةً؛ بل القبول المباشر ليحدِّدَ من تلقاء نفسه المكان والزمان، كافيه الخواجة بمساكن برزة.

لا مجال إلَّا الإفادة من بعض الوقت، والامتثال إلى القدر الذي ألممتُ به بسربٍ يُحلق بعيدًا عن هادي.

لا أدوات تجميل تكسو وجهي، جاكيت خفيفةٌ طويلةٌ حتَّى أسفل الفخذ. أرتِّب الوقت مع حسن الذي كان ينتظرني إذ أوصلني والدي إلى الكافية وحدَّد ساعتين ليقلَّني بعدها.

كثيرٌ جدًّا، حتى لو قال نصف ساعةٍ.

قدماي تخطو على الدرج وروحي ترجع عائدةً إلى أقرب مسافةٍ، محاولةً إيجاد هادي.

أحاديثُه الهامشيَّة كثيرةٌ ومغازلته نابتةٌ عن العيون الجميلة، واللبس الأنيق والوجه الملائكي. حديثهُ اكتظَّ داخلي ولم أُبدِ أيَّ تعبيرٍ سوى السكوت والصمت؛ فحسن خطيبي، إكراهًا أو محبَّةً.

يُحدِّثني عن بطولاته السابقة أيضًا، وعمَّا يمتلك من سيَّارة وبيتٍ ومحالَّ تجاريَّةٍ، إضافةً إلى شراكةٍ بشركة مقاولاتٍ في دمشق، من أموال والده.

أُقارن الصفات بين هادي وحسن دون أدنى مبالاةٍ لحديثه، فاتخذتُ من المبالاة شيئًا يصرف روحي عن كلامه.

أبيض، يدخن من علبة سجائر أجنبيَّة، مرتَّبٌ، مزركش النفسيَّة، يدَّعي التنمُّق والرتابة والهدوء؛ لكنَّ هادي أسمر، جذَّاب يلهف القلب بمجرَّد رؤيته، سجائره وطنيَّةٌ ذات رائحةٍ قاتلةٍ، لكنَّني مدمنةٌ أيَّ شيءٍ من خلاله، بسيطٌ لدرجةٍ تلدغ الفؤاد، ليس متصطنعًا، مزاجيٌّ، مجنونٌ وهادئٌ يجمع التعاكس فيما به، قاسٍ

وحنونٌ، لئيمٌ وطيِّبٌ، أنانيٌّ ومتعاونٌ.

يجعل الذاكرة تتوه في المأوى متسائلةً، كيف تجمتع هذه الصفات بشخصٍ واحدٍ معي، لم يكن أبدًا سوى الحنون الطيِّب المحبُّ الهادئ، إلَّا وقت الغيرة وكأنَّه النار تلجم ما حولها.

يقاطعني حسن من صمتي ليخبرني أنَّ الوالد قد وصل.

أقول في سرِّي: الحمد لله، انتهى الموعد.

يصطحبني أبي بسيَّارته ليرافقنا حسن بدعوةٍ على العشاء .

أبي يستعجلُ الوقت بالتقرُّب لحسن ودنوه منه، كأنَّني عالةٌ على صدره، منبوذةٌ حان وقت وأدها، على أيِّ حالٍ، اقترب الوقت لتبدأ الإمتحانات النظريَّة للفصل الثاني وبعدها ستنال يا أبتي مرادك؟ صرت أنتظر ذلك الوقت بفارغ الصبر، أريد رؤية هادي، لعلَّه يساعدني في انتزاعي من ألمي.

والسؤال الذي لا جواب له:

كيف التهرُّب من قدرٍ ما؟

كيف السبيل نحو لحظةٍ واحدةٍ إلى الوراء؟

❖❖❖

يعودُ الوقت برتابته بعد سهرةٍ لم أكن داخلها بكامل طاقتي. نادرًا ما أنتبه إلى الأحاديث المتبادلة بين الجلسة العائليَّة وزوجي المستقبلي؛ يصبُّ التفكير بالوقت الذي سأرى به هادي، وأخبرهُ بما أطاح دنيتي، لعلَّه يكون السند في غابة الحياة.

خائفةٌ مرتجفةٌ آخر الليل، أناظر اسم هادي على شاشة الهاتف المحمول، لا أستطيع التحدُّث، لا أستطيع السكوت بعيدًا عنه أو المكوث بعيدًا عن محرابه، لا أخرج عن محادثته، أراجعها لتخفِّف الخوف المحيط شغف روحي وهالة قلبي. رسائلُ كثيرةٌ أرسلَها دون ردٍّ منِّي، سكوتٌ طويلٌ يتخلَّلُ اليد التي لا تقوى البوح خلف شاشةٍ، بالعين اختصارٌ لأخطر الكلام. سيسامحُني على بعدي، وعدم ردِّي واكتراثي لرسائله المتواصلة التي انقطعت منذ أيَّام. أعلم أنّه ينتظر نظرةً منِّي أو إشارةً واحدةً كي يخبرني عن كميَّة الشوق المستعرة داخل روحه، هكذا يخبرني قلبي، حتَّى أتى الدليل بكلمات هادي التي نشرها منذ دقائق على حسابه في فيسبوك:

- أكتفي أنَّكِ بخير؛ رغم المطر القاتل الذي يثلج العِطاش

إلى نعو الشباب، واحسرتي أتى المشيب باكرًا، فالشباب دون وجودكِ مشيبٌ.

أردِّدُ بحديثي مع نفسي:

- لست بخير؛ لأنِّي دونك يا سمرتي.

أبكي قليلًا، أتذكَّر اللحظات التي قتلتها دون رحمةٍ، لكنَّك ستسامحني؛ رغم حاجتي إلى عفوٍ ملكيٍّ من قلبك.

تُزاح الهالة الرماديَّة حول الروح، مطبطبةً على الجسد بكلامٍ يدعو إلى نعوه وهلاكه دوني، ودعوةٍ أنَّ الغدَ اقترب واللقاء أيضًا اقترب؛ كانت كافيةً لتنسيني حسن وكيفيَّة التعامل مع الأمر هذا، حتَّى إشعارٍ آخر في مفاجآت الحياة.

صحوتُ بعد أن شدَّني النوم في راحَتِه، ليمضي اليوم كعادته بروتينه المعتاد، إلى أن وصل الليل لتصل ذاكرة العاشقة وخفايا ذكرياتها، فاكهة العلاقة تتقدَّم حين الحنين على طبقٍ من ألم، ننسجُ محتواها غذاءً يمدُّ الجسد بالأمل، حالمين بين جنون الفقد وولع اللقاء.

المسافة إلى ما بعد الأمل متعبةٌ بتقلُّباتها مشكاة أنينها الناعب. أملٌ يمتزجُ بأسًى، وحنينٌ يلوحُ على شراع الشوق، وفراقٌ يدبُّ نعواه في تهاليل العيد.

ينشبُ التضادُّ والتعاكس داخل الروحِ العطشى إلى الوله، صَامت ليالٍ مثل عقود لا سبيل لها إلَّا الرجاء.

السوادُ في الليل، صبغةٌ صنعتها تجاويفُ قلبي التي بارت بغياب هادي، أمَّا تزال الدموع في العين تسقطُ من عينيكَ رغم جائحةٍ صنعتها يداي.

أمَّا تزال تذكر بسمةَ مريم، مشيةَ مريم، نداءَ قلب مريم؟

مريم دونكَ:

ماءٌ في سراب صحراء، شتاءٌ في جزيرة بلا هواء، وروح في جسدٍ بلا دماء.

ما أنا سواك؟

أأنا النقطة التي أبحرت في ماء محيطكَ؛ حتَّى انتهى بها الغرق؟

لمَ العذاب وأنتَ جانبي؟

لِمَ الخوف وأنت فارس أحلامي؟

لِمَ الضياع؟

جانبي لكنَّ اختياري الغريب!

قربي، لكنَّك أبعد قريب!

أضعُ القلمَ من يدي، فتنزفُ عيوني معاتبةً، كأنَّها غيومٌ ركاميَّةٌ من شِدَّة الشوق، تذرفُ ما بها من قطرات دمعٍ.

دون تفكيرٍ أُمسكتُ هاتفي، الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، أبعثُ إلى هادي برسالة نصية :

- كيفك؟

بعد عشرة أيَّام من بُعدي الذي طبَّقتُه عنوةً على سمرتي، جاءت اللحظة التي لا أدع لعقلي أيَّ بُرهةٍ لإبداء رأيه. أهمسُ مطمئنةً بكلمةٍ تسأل عن الحال، والقصد فيها سؤالٌ عن حالي في قلبه، فهمَ هادي إشارتي بفشلٍ ماديٍّ ليرد بعد أجزاء اللحظات :

- أنظرُ بفزعٍ عاطفيٍّ وغمراتُ الشوق تحييني؛ لتخرج الآلام من فؤادي، عادت حياتي من جديد!

- ثلاث نقاط أي أحبُّكِ، أحبُّكِ، أحبُّكِ.

فأبكي بغيمٍ ممتنعٍ عن مهمَّته بالمطر، ليأتي الوقت الموعود فتهطل سيولٌ تغمرُ الأرض كاملةً. أردُّ الكلمة المألوفة ذاتها بوضعٍ لا يحيج المخطوبة أن تتكلَّم، الخاتم يحتجزني لكنَّه لا يمنع ممارسة الردِّ والاستفسار عن حال من وهبتُه روحي :

- وأنا .

الآن، أستطيعُ الكبحَ حزني قليلًا. النقطة الواحدة تعني كلَّ شيءٍ، تعني أنَّ الكونَ ما زال يخبِّئُ فرحًا، يقتصر الكون على عصفوريّ الحبِّ، فالنقطة كافيةٌ لتُعبِّر عن الكثير من الشغف، وتُفسِّر العمر الكامل من المجهول الكالح إلى الواضح الصالح،

النقطة هي تفصيلٌ بدلائلَ فائضةٍ، بين هائمين جمعتهما نقطةٌ قبل أن يجمعها الحبُّ.

❖❖❖

نقطة بداية السطر

تُعولُ البداية بركنٍ هامٍّ ضمن أيِّ ذاكرةٍ باطنةٍ، وهنا يكون الحالُ توَّاقًا إلى الشعورِ المبهمِ، الشعورُ نحو المجهول الخافت المتلألئ خلف مسارات الأيَّام الدائرة بين زوجين. لها طعمٌ ذو لونٍ خاصٍّ، معبَّقٌ بأسود المسك، وممزوجٌ بطلع الندى حين أوائل الفجر. تنصاعُ الروح لها حين الربيع، وتشتاقُ إليها الروح في منتصف الطريق.

النقطة كانت البداية، لأعبِّرَ عن مداي الداخليِّ اللا منتهي حيالَ هادي، فالكلمات التي تدور على المقعد الخشبي في قاعات المحاضرات، تبدأ بنقطةٍ، يتبعها استفهامٌ من هادي.

فأجيبُ بطريقةٍ عفويةٍ، وأنا ألمُّ يداي إلى بعضهما وساعداي إلى صدري، كطريقةٍ للبوح بأنَّ النقطة بالجواب تعني كلَّ شيءٍ:

البلاد، الزمان، المكان، الوقت، الروح، الملفى. النقطة اختصارٌ لديَّ. أشعر أنَّ هادي فهمَ الإشارة الغامضة نوعًا ما، السرُّ المخبَّأ في بدايةٍ مجهولةٍ، ننصاعُ لها حين التقاء الأرواح في زمانٍ ومكانٍ ما

سابقًا، كأنَّنا التقينا في زمان لا ينتمي إلى عصرٍ يحوي التطوُّرَ والنموَّ والعمران. بيوتُنا من أكواخ بسيطةٍ، وترحالنا في قوافل جِمال، مشاعرنا نحو الأماكن والأشخاص والعادات حقيقيَّةٌ، لا تتفاوت، تظلُّ دائمةً.

ينتظرني هادي قرب نبعٍ لماءٍ عذب، ليراني من البعيد. أرواحُنا تكتفي بالنظرة لو لمرَّةٍ كلَّ سنةٍ؛ لتشفي ما امتلأ من شوقٍ اعتمر المسافات. يختبئ خلف صخرةٍ خشية أن يراه أحد؛ خوفًا علي. ينتظر كلَّ عبيرٍ مروري إلى النبع، ميقاتُه ليس ساعة يد، ميقاتُه ضوء الشمس، وموعده دقَّات القلب الظاهرة خلال عينيه؛ لكن تبدَّلَ الزمان إلى حيننا هذا، انساق إلى تطوُّرٍ يجعل الحبَّ لحظةً، والفراق لحظةً، والحياة مهما طالت كأنَّها لحظةٌ، والسبب في أمري قرار لحظةٍ أرخَت سدولًا هائمةً بألام جائعةٍ إلى البكاء .

أريد هدنةً مع الزمن، فهل يمدُّني الوقت ببعضٍ من وقته؛ كي أستطيع الفرار؟

ما أنتِ يا مريم حتَّى تضعي للدنيا ألوانًا زاهيةً؟

ما أنتِ حتَّى تُغيِّري بلفظٍ مراسم الكون؟

من فرحٍ إلى حزنٍ، من قوَّةٍ إلى ضعفٍ.

من أنتِ؟

الملائكة التي تنشر السلام خلال بسمتها.

ومن أنتِ بين ماضٍ أراكِ خلاله كاملًا،

وبين حاضرٍ استدار وتركني مهزومًا منكسرًا؟

ضعيفٌ دون ابتسامتكِ،

ضعيفٌ دون حروفك، ضعيفٌ دون همسكِ.

لو يسعني تكرار الحوادث؛ لأزلتُ حجارة الأرض عن طريقنا،

ومهدتُ حريرًا يليق بطهرك.

ما أنتِ يا مريم؟

العطش الذي لا ترتوي منه روحي،

السلام الحالمين به على الأرض،

السابق الذي نزعمه!

هدهدة الحبِّ،

ووجع العمر.

ألق الروح !

وزئير الجسد.

ألم الذكرى؟

وجراح الحب.

الكلُّ اختصاركِ يا مريم!

❖❖❖

الفصل الرابع

كان ردًّا قاسيًا من مريم تجاهل هادي المتكرِّر، وعدم الردِّ على اتصاله المتكرِّر أو حتَّى رسائلة الخليويَّة .

غيرة الحبِّ ونيرانها القاتلة تلظمُ في جسد مريم، نيران الشوق إلى كلمةٍ منها في نبض هادي.

استسلم هادي بعد المحاولات البائسة، حين علم متأخِّرًا أنَّها صرخة الوجع من قلب مريم، صرخة الجرح الذي ينادي نجدةً من الزمن، يُريد النجاة من أيدي الفارس الذي ابتعد عن طريقها، ليأخذَ رشفة من مياهٍ محرَّمةٍ عليه بحكم الحبِّ ودافع الغيرة، وسلطة الحقِّ.

❖❖❖

هادي...

ندمتُ كثيرًا كأنِّي لم أندم من ذي قبل.

مضت الأيَّام ومريم لم تلتفت نحو أحاديثي التي تناجيها، وروحي الباحثة عن خليلتها. لا تُجيب، أيُّ عصفٍ رصفته؟

هي المرَّة الأولى خلال ثلاث سنوات، التي يصل بها العتاب حدَّ الفراق.

الحياةُ توقَّفت من حولي .

أنس يداوم في عمله، وأنا المعتكف دون عملٍ أو دراسةٍ، حتَّى الحديث الذي يفاتحني به، اختصر الجواب بنعم أو لا. يجاريني ويجلس جانبي، يساعدني في المظاهرة ضدَّ الحياة وضد الوقت.

كان رفيقًا رقيقًا بكى لبكائي، حين أدماني ليل الشوق وأضعفني الحنين. بكيتُ من كلِّ الحواس، من كلِّ الأرجاء المحيطة بي، حتَّى الشوارع في خطوط جسدي بكت، ووهنت!

سلمتُ عتاد معاركي، وكنت فارَّ حربٍ وجبان وطنٍ!

دخل أنس عائدًا من العمل. رآني في سريري المركون به مهملًا

ما حولي مبعثرًا حوائجي، كأس الماء، الفرشاة الغطاء، قنينة الماء المرمية، التي سُكبَ ما بداخلها إلَّا القليل.

منشفة الوجه، ركوة القهوة والفنجان الذي تحوَّل لونه أسودًا من داخله حتَّى خارجه، علبة السجائر أمامي على طاولة الدراسة، هنَّ أصبحن الدراسة!

يبتسمُ أنس ابتسامةً لطيفةً، وهو يحادثني:

- ألم تحادثك بعد؟

أنظر إليه نظرةً شبه مغمضةٍ:

- ليس بعد.

يكرِّر بسؤال آخر على صيغة جواب:

- عجبًا أمور النساء؛ هو عقابٌ يا هادي؟ تحلَّى بالصبر؛ قليلًا وغدًا أيَّامٌ الامتحان النظريِّ للفصل الثاني، ستراها وحتمًا ستحادثك.

أنظر إليه نظرةً بائسةً لأجيب:

- في المرَّة الأولى حادثتني كالغريب، ألم أخبرك؟ وتجاهلتني

كالغُراب. مرَّت أمامي أكثر من مرَّةٍ ولم تعطِني اعتبارًا، وحين أحادثُها، ما من مجيب.

يسايرني أنس متممًا :

- نعم أعلم، وكنتُ معك أغلب المرَّات، لكنَّها ليست النهاية يا صديقي؛ مريم تحبُّك،

وآذيتها، عليك تحمُّل مقدار خطئك، وتصبر عليه حتَّى تسمح عنك.

تختبرك وبالوقت ذاته تعاقبك، تختبرك؛ لتعلم أنَّ إلهام لا محلَّ لها من الإعراب

عندك، وتعاقبك لأنَّك رخَّصت بوجودها في حياتك.

أنظرُ إلى أنس، وقد أراح الكلام بعضًا من اللهيب داخلي، لكنَّ الخوف ما زال يزمجر لأقول:

- لم تخاصمني أكثر من ساعةٍ، وأينما وصل الخصام لا تذهب، بل تواجه وتبقى إلى

أن يملئ الدمع عينيها، لأستسلم لكلِّ ما بها، مقابل ألَّا تبكي.

أن تبكي نقطة ضعفي، كما أنَّها نقطة ضعفي وسبيل قوَّتي .

يصعب عليَّ تقبُّل نزول دمعةٍ من بحر عينيها. تبكي الدنيا وما عليها مقابل ألَّا تخرج دمعةً من مقلتيها.

والآن يساورني شعورٌ أنَّ البكاء حاجتها وسبيلها، مثل سبيل الصمت الذي أودت

إليه رحالها.

إلى متى سيبقى الصمت وسيلةً للنجاة، للهَرَبِ، الابتعاد، للغياب لكِ يا مريم، ألم نتفق أنَّنا معًا حتَّى الموت؟

من يحبُّك، لا يغلق أمامك الباب، ولا يبني معك الحواجز، من يحبُّك فقط!

يقاطع سكوني أنس:

- هي المرَّة خلال ثلاث سنواتٍ، وهذا دليل قوَّة الذي يجمع بينكما.

- كيف هذا يا أنس؟ دليل قوَّة الغياب، الصمت!

أتعلم، هذا ليس إلَّا تجاهلًا، والتجاهل ما هو سوى لا مبالاةٍ.

أخاف أن تكون قرَّرت المضيَّ في حياتها دوني.

يبتسم أنس؛ بنيَّة أن يخفِّف عنِّي ويطمئنني بأنَّ كلامي لا صحَّة له قائلًا :

- هي ابتعدت؛ لتعلم أنَّها تحبُّك، وتغار عليك، وإنَّ الغيرة أثمن ما في الحب.

الغيرة التي تجعل العين تراقب وتنتظر، حتَّى تستسلم لراية السلام.

الغيرة التي تجعلك تعاملها كغيرها، الغيرة يا هادي، من صفات الحبِّ، أن تكون لي دون أن يشاركني بك أحد.

أتعلم! إنِّي أحسدك أحيانًا على الذي تعيشه وتشعره وتتبادله مع مريم. نظراتها لك ليست مألوفةً، حتَّى حين تسير مبتعدًا عنها، لا تكفُّ عن التحديق نحوك، وهي هائمةٌ بنظرات تكنُّ العشق اللا متناهي.

أنظر نحو أنس مردِّدًا بحرقةٍ تملأ الصوت:

- ألا زلت تحسدني على هذه الحال الآن؟ أريد سماع صوتها ولو كلمةً واحدةً؛ داخلي لا يتحمَّل، نيران الخوف تأكل

جوارحي، غيابٌ وتجاهلٌ وبُعدٌ.

التجاهل صفةٌ من صفات اللا مبالاة، واللا مبالاة أيّ (اللا حب)، نقطة اللا عودة.

يَجبَهُني أنس:

- لِمَ أنت هكذا؟ لم يتبقَ سوى القليل وترى مريم، وبجميع الأحوال ستكلِّمك. هذه يا صديقي مرحلةٌ من مراحل الحبِّ في أيِّ علاقةٍ تمرُّ على العاشقين، ليست النهاية دائمًا، بل البداية والاختبار! فإن نجحتما فيها نجح الحبُّ، وإن فشلتما يعني أنَّ هناك من قصَّر.

انظر إلى نفسك وحالك، لمَ لا تقاوم؟ هذه الحالة لا تجلب لك إلَّا الاستسلام، توقَّفت عن العمل وعن الحياة! لا تثابر على دراستك أو تُهيئ الأمور التي تقرِّبك أكثر إلى مريم، لا، التراجع إلى الخلف. سقوط سنةٍ مؤذٍ على نحوٍ كبيرٍ يا هادي. مريم تحتاج الحبَّ ليس فقط بالكلام، ولا تخبرني أنَّ أفعالك تدلُّ على حبِّك لها، لا تريد إلهام في حياتك، ابتعد عنها؛ تريد تأكيد حبِّها لك. ثابر في

عملك وفي دراستك فمريم تحتاج خاتمًا أيضًا ليس كلامًا فقط.

حين تراها، يجب أن تُخبرها أنَّك ما زلت عند كلامك، وأنَّك رجلٌ لا يحيد عن كلامه وإن أخطأ مرَّةً لا يكرِّر الخطأ. تخبرها أنَّك تكابر على العمل لأجلها، لأجل التقرُّب إليها أكثر.

يقف من على السرير ليتأهَّب وهو يحثُّني:

- لنتناول الطعام الآن، وتبدأ من فور الغد بالعودة إلى الدراسة والعمل؛ حالك لا يعجبني أبدًا يا صديقي.

أنظر إليه، مطأطئًا رأسي، دليل موافقةٍ؛

فكلماته كانت ما أحتاجه لأنهض، ولو بقدر أنملة نحو الحياة.

بعد الانتهاء من الطعام، والتجهيز لمرحلة النوم،

أطفأتُ النور وخلدت إلى سريري الذي بدأ محادثتي وتمضية الوقت معي، أفكِّر بالتي لا تغيب عن البال، مريم.

حين الألم، حتَّى الجماد يشعر ويناجي حال الإنسان، على عكس الشخص الذي سبَّب الألم الذي لا يكترث لأمرك.

القلم يحادث الكاتب، ويشاركه ما أَلَمَّ به، الصور، الباب

الخارجي، الحائط المقابل للسماء، الأريكة، السرير، الشمعة التي تأخذك إلى ما قبل الوجع،

حتَّى الجماد بات يشعر بعد أن تخلَّى الإنسان عن إنسانيَّته.

أنس ينظر إلى الحكاية من ناحيةٍ خارجيَّةٍ وبمنظورٍ أفضل من منظوري، لكنَّ قلبي ما يزال يرتجف وعينيَّ تأبى النوم، الأرق يلازمني طوال أيَّامي، صرت أصحو متأخِّرًا، حتَّى تأخُّري عن موعد اليقظة. الليل صار نهار الخلوة، يضرمني النار ما بين جنون وسكون، ما بين بكاء وفرح. أتقلَّب يمينًا تارةً وشمالًا تارةً أخرى، ثُمَّ على ظهري أنظر إلى سماء غرفتي المظلمة. مرَّت الساعة تلو الأخرى والنوم على عداوةٍ معي، حتَّى الوقت يسير ببطءٍ، حتَّى أنتِ تعاديني.

أخلو إلى أفكار تسرقني بين الفينة والفينة مشاهد وأحداث حصلت بيننا:

- صباح الخير. (مع ابتسامة تعتلي بياض وجهها الناضج)

تقولها مريم حين وصلت إلى الجامعة، مقابل مبنى الاقتصاد،

حيث كنتُ أنتظرُ قدومها. أبتسمُ بدوري وقد هزَّتني يقظة الروح حين توهب إلى الوجود:

صباحي أنتِ، مسائي أنتِ، وحياتي أنتِ.

يرتسم الورد على خدي مريم، لتباغتني بسؤالٍ:

- أين أنس؟

أجيبها مستهزءًا وقد علمت لعبتها:

- ذهب إلى محاضرة النظري.

تردُّ عليَّ:

- لنذهب إذن قبل أن نتأخَّر.
- جئتُ لأراكِ، لا لأحضر محاضرة مملَّة تعيدني إلى سرير غرفتي.

تضحك، لتجيب مع نظرة شائبةٍ ترتسم على عينيها :

- منذ متى وأنت تحضر لتستيقظ؟

أنظر إليها بعد أن أمدَّ يدي ماسكًا زمام المبادرة، لنخطو باتجاه ندوة الكليَّة:

- أستيقظ دائمًا داخل المحاضرة كي أنظر إليكِ، أشاهد القلم حين ينساب على الورقة واشيًا لكِ شوقي.

أرى نسيم عينيكِ اللتين تهباني المثول والرخاء في هذا الكون.

تسيرُ جانبي، ويدها ممسكةٌ يدي. تراقبُ شفتيَّ ما يتحدثان مستلطفةً كلماتي وبوحي نحو ما أصبو إليه، ماثلة إلى الطريق مقاطعة كلام الغزل:

- إلى فنجان القهوة وسيجارتك المفضلة، التي تشتاق إليها كثيرًا حتَّى وأنت معي.

أنظرُ نحوها مكملين السير:

- القهوة لا طعم لها إلَّا معكِ، فما بالك بالسيجارة التي لا طعم لها سوى جانبكِ؟ لهذا أستثمر الوقت بفنجان القهوة والسيجارة في أثناء وجودكِ،
- ما زلتَ تغشُّ في الإجابة يا سمرتي.

نجلس متقابلين على الطاولة لساعتين ثُمَّ نذهب إلى جلسة العملي. تمتلئ الساعتين بالنظرات المتبادلة، عيني التي لا ترى

سوى مريم، تنتقل من عينيها إلى خديها إلى دائرية وجهها، إلى يديها، باختصار، أختلسُ النظر وأسرقُ الصور لأحفظها في ذاكرتي، وأحفظ ما تحتويه من التفاصيل سواءً لجسدها أو روحها.

إضافةً إلى الحديث المتبادل عن الأهل، وكيف مضى الأمس وما به من أحداث، وعن الدراسة والمواد.

يطولُ التفكير والبحث في الذكريات التي جمعتنا. الابتسامة الصافية التي تعاودني إلى الأمل، ثُمَّ المواقف الأخيرة التي ترجعني إلى كومةٍ من الألم. أستسلم إلى الورقة والقلم؛ لأكتب:

- سمرتي، هكذا تناديني. مرَّ وقتٌ أشعر أنّه سنين، ولم أسمع بهذه الكلمة تخرج من شفتيكِ، كم أشتاق إليها.

شوقي إلى كلمةٍ خرجت منكِ مرارًا، فما بالك بما هو أعظم من ذلك؟ حبِّي لك!

أرجو مع الوقت أن تسامحيني، تفهميني ولو قليلًا، تهبيني فرصةً أخبركِ خلالها كم تغيَّرت.

أرجو الغفران رغم ما سبَّبته لكِ من حزن؛ لم أقصد ذلك، كلُّ

ما في الأمر أنَّ الوقت أخذني، فلا إعراب لأيِّ أنثى في حياتي سواكِ. أنتِ المبتدأ والخبر، الفعل والفاعل، الجملة الفعليَّة والاسميَّة، وأنا؟ لاشيء دونكِ.

أرجو أن أكون في كابوسٍ أستيقظ منه في صباح، أُطالع وجهكِ مرَّةً أخرى فتحيا الصلاة من جديد على مرسم عينيكِ، وتفَّاح خدَّيكِ، ونور جسدكِ، وطُهر روحكِ.

وهبتني القوَّة، ولا قوَّة لي على الحياة دونكِ أرومتي!

أرفع القلم جانبًا، لأمزِّق الورقة؛ فالمنشودة لن تقرأ.

أنغمسُ في سريري، أتقلَّبُ من جديد حتَّى يسمح الحزن لروحي أن تنام.

❖❖❖

العينُ مغمضة والروح مستيقظة. إنَّها الثالثة فجرًا وما زلت أداومُ تعداد كميَّة الفراغ في الهواء المارِّ.

أريدُ الهَرَبَ من التفكير، لا بالحياة ولا بالدراسة ولا بأيِّ جانبٍ من جوانب الحياة، فقط بمريم، أحتاجُ شيئًا منها .

أمسكتُ هاتفي لأفتح الفيسبوك، أقلِّب المنشورات السابقة وما بها من تعليقاتٍ لمريم، ثُمَّ أدخل صفحتها الشخصيَّة، لم تنشر أيَّ شيءٍ منذ يومي المشؤوم مع إلهام.

الصمتُ يعمُّ المكان، الصمتُ الصارخُ يبعثُ على الجنون أكثر. تناجي الروح نفسها في خُلوةٍ، لعلَّ الخطأ يُنسى أو يُغتفر.

لماذا؟

السؤال جوابه معبَّد بالصمت الصارخ نحو بلوغ الجنون. سأعبرُ عن صمتي بجملةٍ واحدةٍ، بنقطة حبٍّ واحدةٍ، لعلَّها تستند في إفادةٍ قويَّةٍ تجاه قاضيتي مريم؛ فتشفق على حالي المتيَّم.

الروح التي تطلب غفران سلواها.

– تأتينِ في حلمي، وآتيكِ في واقعي؛ فتظلميني. سأظلُّ أراكِ

بقلبي، الذي ملكتِ نبضه، ومهما تقسين عليَّ، ستجديني.

أنشرُ السطر على الفيسبوك، لأخلع الهاتف من يدي. أرتمي إلى حلمي من جديد، هَرَبًا من حربٍ موشكةٍ وخاسرةٍ؛ فالملامحُ جميعها تشير إلى ذلك، رغم ما أخبرني أنس به. أستلقي على سريري، ووجهي نحو سقف الغرفة، تملأني نشوة الذكرى لما أتى على البال ذات صباح، الصباحُ الذي يبدأ بوردةٍ صغيرةٍ حمراء قاتمةٍ. صباحٌ من نوعٍ آخر، لا سيَّما حينما تأتي على غفلةٍ، دون أيِّ موعدٍ أو أيِّ مناسبةٍ، لأرى البسمة تعتلي وجنتي مريم وقلبها، البسمة ليس على الوجه فقط، بل داخل القلب، حتَّى الروح تبتسم إذ رأت شبيهتها.

الروح أيضًا أنثى، كما الجنة، الحياة، الوردة، الوردة التي تربط الأشياء الجميلة بالأنثى دليلُ تعظيمٍ لما لها من مكانةٍ.

لهذا، أنثاي مريم هي كوكبٌ بحدِّ ذاتها، بأيِّ تفصيلٍ تحتويه مجرةٌ ومعجزةٌ.

اليدُّ الناعمة، الروحُ البسيطة، الجسدُ المتناغم كسمفونيَّةٍ

لبيتهوفن تتكاملُ فيها الآلات الموسيقيَّة، لتعطي ملاكًا يطيبُ على مسامعنا.

كقصيدةٍ لامرئ القيس، تتهاتف الصور الشعريَّة خلال كلماتها لتتآلف الحروف على مسمعنا طيبًا وألقًا.

أيُّ روحٍ تسكنني يا مريم خلالك، أنثرُ الحياة فرحًا لوجودكِ جانبي، أمتلكُ الجنة في الحياة!

صدِّقيني، الأرض لم تكن كافيةً لكِ، الوردة أيضًا ليست كافيةً، لكنَّها الشيء الماديُّ الوحيد الذي أقوى على تقديمه في الوقت الحاضر.

هذا الصباح، أمتلك وردةً في يدي أقدِّمها لكِ يا وردتي.

تنظر مريم نحوي مبتسمةً، دون كلامٍ، تصغي فقط لما أقول، تتوقَّفُ الحواس عن سماع أيِّ حركةٍ أو تقلُّبٍ أو تضاربٍ، لا شيء سوى نطق الحروف المنطلقة من شفتيَّ:

- سأرى الآن وردتين: وردةٌ صغيرةٌ ووردةٌ أكبر تحتفظ بالوردة الصغيرة، ستغارُ هذه الوردة من جمالكِ يا

أرومتي، فلا تبالي لأمرها، واجبُ التقليد أن يغار من أساسه.

تمدُّ يدها اليمنى مبتسمةً محمرَّة الخدَّين تلتقطُ الوردة، وهي تنظر في عينيَّ لتقول ببراءة الأطفال:

- أنا وردة لأنَّكَ معي. ما أجمل أيَّامي لأنَّك بها، وما أروع هذا اليوم لأنَّه يبتدئ بك.

أكره يوما الجمعة والسبت؛ لأنَّهما عطلةٌ رسميَّةٌ لا أراكَ فيها ولا أسمع صوتكَ خلالهما.

أقتربُ نحوها أكثر:

- الوقت يمضي، وكلَّما مضى؛ اقتربنا أكثر من اليوم التي تكونين داخل بيتنا، يجمعنا بيتٌ واحدٌ، كما يجمعنا الآن القلب ذاته والروح ذاتها.

قبل أن أكمل تقاطعني بغتةً:

- أحبُّك سمرتي.

أبتسم فأكرِّر جملتها:

- أحبُّك أكثر أرومتي.

نمضي إلى إحدى زوايانا المفضَّلة التي تجمع ما بين صمت قلوبنا، وصيحات الشوق الذي تزداد ونحن معًا.

هذا هو الحبُّ.

إنِّي أحبُّكِ حتَّى النفس، وأبحثُ عنكِ وإن كنتِ جانبي.

ملء الفراغ.. أُدرِّبُ حواسي على التقاطكِ من البعيد، من نبضٍ ويدٍ وعينٍ وروحٍ، وكلِّ جزءٍ من أجزاء الجسد.

هذا هو الحبُّ.. أراكِ فأشتاق أكثر، أُحدِّثكِ وأنصاعُ للحديث أكثر معكِ، كأنَّ جميع الكلام سابقًا لم يقل.

سأعيد تكرار الكلمات، واللحظات معكِ.

وأعيد روحي ناضجةً في حبِّك.

آلفت يديَّ يديكِ؛ كلُّ يدٍ هي نصفٌ للآخرى .

كم أعشق تفاصيلك الصغيرة، تمتلئ داخلي مثل روحٍ داخل الجسد، لا تكفي كلمة أحبُّك يا مريم .

أذوب فيكِ، أعيش لأجلكِ، أتنفَّس من رئتيكِ، أرى خلال

عينيكِ، أنتِ الحياة المثلى التي حلمُتها، تمنَّيتُ وجودَها، أيُّ نعمةٍ أنتِ لا تحصى، وأيُّ آيةٍ من المعجزات!

أنظر وأنظر لساعاتٍ جانبكِ ثُمَّ أمامكِ، بعدها نقف لنسير قليلًا. الأحاديث كثيرةٌ منها المتكرِّر والمعتاد، ومنها الغريب الذي أخشى خوضه، لا سيَّما عن أبيكِ الذي تنقلبين فجأةً حين ذكر اسمه أو سؤالي عنه.

تأخَّر وقتنا معًا، صار موعد سيَّارة أبيكِ أن تأتي لاصطحابكِ إلى البيت، على غير العادة متأخِّرة، هناك عملٌ ما يُؤخره.

- لن يأتي أبي اليوم، ولن نستطيع السير سويًّا خارج الحرم الجامعي؛ أخاف حين سيرنا أن يرانا أبي مصادفةً عند مروره في الطريق. ستأتي والدتي وعائشة بعد نصف ساعةٍ، وهي تنظر إليَّ نظرة شغفٍ إلى ما قالت :

ننتظر في ساحة الجامعة، عند المقعد المقابل للشؤون؛ فلم يتبقَ إلَّا القليل من الزملاء.

- هيا إذن أو اذهب أنت، أنتظرهما وحدي، يجب عليك أن

تأكل؛ إنَّها الرابعة عصرًا.

- لا عليكِ، لست جائعًا، حين تذهبين وقتها أجوع.

عابسًا وجهي حسرةً على ذهابها. تبتسمُ بدورها لتحمل يدها اليمين نحوي:

- غليز. (تضحك)

أمدُّ يدي نحو يدها لألتقط أنفاس روحي من جديدٍ، ثُمَّ نجلس وننتظر منهكين. أنظرُ إليكِ على نحوٍ دائمٍ، تنظرين نحوي كلَّ برهةٍ لتعاودي النظر في الأرجاء، فأهمس:

- أرومتي، ضعي عينيكِ بعينيَّ.

تزمين شفتيكِ دلالًا:

- لماذا؟

- اشتقت إليهما.

- تحمَّل قليلًا يا سمرتي، عليك بالصبر.

لتبتسمي علامة فوزٍ دائمٍ.

أنسحبُ مهزومًا كعادتي أمامَ طيب زهركِ ولطف أنوثتكِ فأقول:

- كعادتكِ أرومتي، قاسيةٌ ظالمةٌ.
- أنا!

تقولينها مستفهمةً غير مدركةٍ مغزاي، فتنظرين نحوي، أبتسمُ واضعًا يدي على خدَّكِ الأيسر وأجيب:

- نعم أنتِ، بكلِّ هذا الجمال كيف لا تكونين قاسيةً؟ وهذه البراءة كيف لا تكونين ظالمةً؟ قلبي لا يتحمل كلَّ هذا الجمال وهذه البراءة؛ لهذا قاسيةٌ وظالمةٌ أنت.
- لا تقل هذا سمرتي، أخاف.

تقتربين نحوي لتضعي رأسكِ على كتفي الأيسر. أعانق يديكِ لأصمت، وأباعد حتَّى النسيم الرطب عن جسدنا الواحد.

مضت النصف ساعة، اقترب وصول الأم وعائشة.

- علينا الذهاب نحو الباب الرئيسيِّ، أمي وعائشة تنتظران.
- هيا سأذهب معكِ.

- لا؛ كي لا تراكَ أمي.

أقطع الخوف داخلها، لأوضِّبه جانبًا :

- أرومتي أريد الاطمئنان، وأريد رؤية حماتي من بعيدٍ.
- حسنًا، قبل الوصول إلى الباب بمسافةٍ تقف، وتنطوي جانبًا.
- اتفقنا.

نسير نحو الباب، أتركِكِ قبل الوصول إلى الباب.

بعد كلِّ بضعة أمتار تنظرين خلفكِ نحوي.

وصلتِ إلى الباب الرئيسي وأنا على بعد بضعة أمتارٍ، مرَّت عشر دقائق ولم يأتِ أحد، ذهبتُ إليكِ ووقفت، لم تسأليني لماذا أتيت؟ بل زادت دقَّات قلبكِ، فأنتِ تعلمين مدى خوفي وقلقي عليكِ.

بعد بضع دقائق وإذ بالأم وأختكِ عائشة تقتربان من الباب نحونا، قلبي يخرج من مكاني وجسدي يرتعش لما اقترفت، فمريم لن تهنأ اليوم في تتمَّة يومها. تذهب مريم نحو الوالدة، وأنا متسمِّرٌ في مكاني.

تجتمع مع الأم وأختها، تردُّ نظرها إلى الوراء مشيرةً بيدها اليمين إلى اللقاء مع ابتسامةٍ لا تنطفئ.

خفَّ الخوف داخلي، بادلتُها التحيَّة والابتسامة ذاتها، فابتسامتها دليل أنَّ الأمور طبيعيَّةٌ، ولا خوف من رؤية والدتها أنَّها معي، فيزول قليل القلق ممَّا صنعتُ بوقوفي معها.

❖❖❖

يلازمني السؤال حينها، فاللحظات أشبه بسنواتٍ. أنتظر علامة وصولها البيت، الدالَّة بمعنًى خفيٍّ أنَّ الأمور بخير! فأطمئن أكثر، مضت الساعة الأولى كسنةٍ، الساعة الثانية أيضًا. حتَّى حين ذهابي إلى العمل. أعاودُ النظر إلى هاتفي المحمول خشية وصول رسالةٍ أو اتصالٍ أتاني سهوتُ عنه.

ها أنا في الانتظار!

كما الحياة دائمًا تجعلنا ممتلئين بطقوس متعدِّدةٍ للانتظار .

الزمن الذي نخشاه رغم ولعنا به، إذ تطغى في القلب نبضاته عن العقل بتفكيره؛ ليبعث شعور الخوف وخشية المجهول المُنتظر.

الأيَّام صديقتنا المزيَّفة وعزيزتنا الناكرة، تغرينا في نبضةٍ خلال نشوةٍ لتكرِّر سدادَ عدَّادها بلفظٍ لئيمٍ يجوِّفُ اللحظة التي سبقتها،

ما بين فكرة أليمةٍ تتبعها نشوةٌ غامضةٌ تفوح بعطرٍ هانئٍ، حتَّى أتى الوقت الذي أنارت مريم الإنترنت، حان الوقت لينتهي الانتظار، ودون تحيَّة أبعثُ إلى مريم، على عجلةٍ من أمري :

- أرومتي، أخبريني ما الذي حصل؟ ماذا حدثتك أمك

وعائشة؟ أهناك خطب ما؟

- سمرتي لا تشغل بالك، سؤال عادي من والدتي عنك.

- ماذا أجبتِ؟ خشيت أن توبِّخكِ.

- لا شيء، لساني لم ينبت بأيَّة كلمةٍ، ظللتُ الكلام! حتَّى تكلمت عائشة بأنَّك هادي زميل الدراسة لا أكثر، ثُمَّ بدأت بالحديث عن التسوُّق الذي ذهبنا لأجله.

- أمُّك تعلم بأنِّي أحبُّكِ؟

- لا، لكنَّ عائشة تعلم ولا أظنُّ أنَّها أخبرتها.

- لماذا لم تجيبي إذن؟

- لم أجرؤ على إخبارها بأنّي أحبُّك، وفي الوقت ذاته لا أريد التفوُّه بشيءٍ كاذبٍ كأنَّك زميل دراسةٍ فقط! عائشة تفهَّمت ذلك خلال صمتي لتنقذني وتجيب نيابةً عنِّي.

- لماذا لا تخبرينها بحبِّنا؟

أسألُ مستفسرًا.

- ليس الوقت المناسب يا سمرتي، حتَّى يحين الوقت،

سأخبرها رغم خوفي بعدم تقبُّلها ذلك أو على الأقل من فعل أبي.

أجابت بسطورٍ خفيفةٍ تعطي الجواب، لكنَّها تخفي ما عَظُمَ.

أشعر أنَّها ليست بخير لهذا عمدت لمجاراة الأمور قبل أن تخرج عن سيطرة الروح:

- لا شيء يمنعني أن أحبَّك، سيأتي الوقت الذي يستسلم به الزمن لهوانا ونبض قلوبنا الواحدة.

تجيب باختصار تامٍّ:

- إن شاء الله.

القلب استشعر الخطر المداهم تحت مسمَّى الغد بمرافقة صنديده الانتظار، ليسطِّر الحبُّ تكليله، النجاح أو الفشل، لا وسط بينهما.

مضت الذكريات خلال لحظاتٍ لأسال نفسي السؤال: هل تتذكَّرين ذلك يا مريم، أم أنَّه أصبح في طيِّ النسيان كما سؤالي؟

أحاول النوم بعد شقاءٍ متكرِّر معه، وكأنَّه من المخاصمين لي.

❖❖❖

أستيقظ من نومي، لأعود إلى واقعي، فتغلبني الجفنات بركودها إخماد هلع الحياة.

لا حياة في غرفتي. ذهب أنس منذ يومين يستثمر الوقت هذا ليرى والده وأمَّه، وأنا في مكاني مع عملي ودراستي وغرفتي.

يتابع عقلي الباطن ذاكرته، لأذكر ما رأيت في الحلم:

القماش الأبيضُ يغطِّي الجهات الأربع، ماثلًا أمام نسمات الهواء ليكشف ما داخله.

ترتدي مريم فستانًا أبيَض، وشعرها الأسود الطويل المفرود على كتفيها، تحمل بين ذراعيها طفلًا بدا في الحلم أنَّه ابنها، تسير به جيئةً وذهابًا.

كالروح بدوتُ أراها ولا تراني، أناظرُ الصغير الذي لا أرى تفاصيله أو أيَّ شيءٍ منه فقط لفافته البيضاء التي تكسوه متشبِّثة أمُّه بها.

يستمرُّ المشهد دقائق بلا كلامٍ، تراقب الروح المرأة مع ابنها، إلى أن أصحو أفتح عيني فجأةً عائدًا إلى الواقع، أشرد فيما كنت أراه

قبل قليل.

أتقلَّبُ يمينًا وشمالًا، أقفُ، أذهبُ إلى الطاولة، أشرب كأس الماء، يوم جديدٌ آخر يختلف به التاريخ. الأحداث توقَّفت عن دوامتها لتستقرَّ ما بين ذكرى جميلةٍ وحاضرٍ يشوبه الشحوب؛

بغياب مريم.

بعد يومين ستكون المادَّة الأولى. أعود إلى سريري وقد علمتُ حلمي وتفاصيله المبهمة. أتناول محاضرات المادة الأولى تقانات الأغذية، آخدها معي إلى سريري، أطالع محتواها، حاضرُ الجسد شاردُ الذهن.

مضت عشرة أيَّام على واقعة إلهام، حتَّى أتى المساء الذي أنارته مريم بسؤالها على الفيس بوك:

- كيفك؟

- له الحمد، وأنتِ؟

- ...

إجابةٌ مختصرةٌ لعالمٍ كاملٍ.

ثلاث نقاط، والنقطة تعني الشيء المنتظر، الغائب، الحاضر، البعيد، القريب، الصغير، الكبير، تعني كلَّ شيءٍ.

أخيرًا حادثتني مريم ولو بكلماتٍ معدودةٍ، كافيةٌ لينار النور داخل الروح من جديدٍ؛ فيخفِّف وطأة الحزن المثقل داخل الجسد.

بعد نقاطٍ ثلاث، الصمت طغى على يديَّ اللتين تشبَّثتا بالركود مثل هدوء الليل. لا أعلم بأيِّ شيءٍ أبدأ، وما الباب الذي سأتطرَّق إليه؟ باب الشوق، الوحدة، الضياع، النيران الحارقة، الصمت الذي يملأ الجنون جنونًا.

لتكملَ ما بدأتْه، فتخلع السكون من عباءتِه :

- كيف حالك أنت، والدراسة؟
- لا أدري ماذا أجيب، لكن باختصار كالأعداء، أهرع منها تلاحقني أينما ذهبت كظلِّي، وأنتِ؟
- أنا لا أعلم، لن أغار منك وأخبرك أنَّنا كالأعداء، سأخبرك أنَّ هذه الأيَّام جميعها وما بها كالغرباء؛ لكن يجب أن ندرس، أليس كذلك؟

- نعم، هو كذلك.

أجيبُ لأقرأ ما بين السطور أنَّ العذاب يحيط روحكِ يا مريم، أليس كذلك؟

أتصدِّقينَنِي إن أخبرتكِ رغم أنَّ لحديثك معي وقعًا من الفرح، كان هناك خوفٌ نتيجة ما تحدَّثنا به؛ كان حديثًا عاديًّا جدًّا، حتَّى أنِّي لم أستطع قول (اشتقتلك).

أخبرتكِ هو الخوف، الخوفُ أنَّ الكلمة لم يكن وقتها، فقد كنتِ بعيدةً لفترةٍ من الزمن، وجمال هذه الكلمة أعظم حين اللقاء، والخوف أيضًا عليكِ بما مررتِ به، فالواضح أنَّه ليس هيِّنًا.

هكذا شعرت، وتمنَّيت ألَّا أشعر لأكتفي بفرح حروفك؛ فالمُلام في الأمر كلُّه أنا.

الغرباء الفعل الذي ارتكبته، والأعداء كلُّ من حولي إلَّاكِ.

صدِّقيني يا مريم، وسامحيني، قلتُ ذلك في ذاتي لأتوجَّه نحو كلمةٍ أشـــمل من الشـــوق بســـريَّة قصَّتنا، ثلاث نقاط.

مرَّت الأيَّام الثلاث كدهرٍ رغم الشغف الذي أمدَّتهِ للدراسة

والتحضير للمادة الأولى من أجلكِ وكلمتكِ أنَّنا يجب أن ندرس، والسبيل لرؤية ابتسامتكِ حين بشراها أنَّ أمور الإجابة جيِّدٌ وهي مادَّةٌ لن أكرِّر دراستها.

أهناك أجمل من أن يكون نجاحك ليس لك وحدك؟ بل بمن تحب، يُشاركك الجميل فيكون زينته، يُساندك المرَّ ليكون طارده؟

بحكم الحبِّ آنستي في جميع المقرَّرات، تأمرني بالدراسة تتباحث معي عن الأمور المهمَّة، وتحدِّد لي كما تحدِّد لنفسها الأسئلة التي يجب التركيز عليها ودراستها بعمقٍ أكبر.

زميلتي أيضًا، فهي تجلس في المقعد المجاور التي تعترف بأنَّها تختلس النظر إليَّ كلَّ حينٍ معاتبةً بطئي في الإجابة وعدم الالتفات نحوها إلَّا بعد وقتٍ متأخِّرٍ، لأعلِّل فعلي وتركيزي في حلِّ الأسئلة وبطئي في الكتابة، لتخبرني مبتسمةً أنَّ القلب يأمرها بذلك، فتلبِّي بما أمر.

وبحكم الحبِّ قبيلتي وعشيرتي.

وبحكم الحبِّ إخوتي ووالدتي.

وبحكم الحبِّ دنيتي.

لا شيطان يزاورني في الحلم، الطمأنينة سكنت القلب، ليأتي صباح المادة الأولى.

❖❖❖

الصبح المنتظر مع الكلمات البيضاء التي ستُكتب، هكذا غالبًا هي الفكرة التي تُستشفُّ إلى البال بعد فترةٍ يُقالُ عنها تأديبيَّةً بفعل ردِّ الاعتبار من عاشقةٍ إلى عاشقٍ، من يتوقَّع غير هذا؟

تعودُ العصافيرُ إلى أعشاشها محمَّلةً بالقشِّ المُرمِّم لمسكنَها خلال ربيع العمر، المنشدةُ بصوتٍ عندليبها بين صور العشق العذريِّ للمحبِّين، وبين عوالم باتت تخشى الفشل .

العصافيرُ بطبعها تسافر إلى أماكن أخرى لتبني عشًّا جديدًا، هل يسافرون أزواجًا خلال الرحيل، أم يكتفي الذكر بعروسٍ لموسم واحد؟ على الأقل ليس كما البشر، فلن يفكِّر أيًّا منهما بالخيانة مضمونًا؛ إذ يجتمع الطرفان على بناء العشِّ والانتباه إلى المواليد القادمة التي ربَّما تجمعهم في فصولٍ آتيةٍ، فيعاودوا البناء في موطنٍ آخر، أو يكون الرحيل رحيلين، الرحيلُ عن العشِّ، والرحيلُ عن الأبناء.

بسيطةٌ هي الحياة إذا نظرنا نحو أقلِّ درجةٍ منَّا، شاكرين لنعمة العقل والذاكرة والتخيير في الطريق الذي نسلكه. ضير الكائنات

التي تُسيِّرها فطرةُ الخالق للتوازن البيئيِّ. حتَّى في هذا الشيء نحسدُ الكائنات الأخرى، فالعشق في ديارهم لا يرتبط بمعلَّقةٍ شعريَّةٍ أو كلماتٍ معسولةٍ يسبقها تحضيرٌ وتأهيلٌ كأحد أنواع الاعتذار، يكتفي وقوف العصفور جانب أنثاه، يغرِّد بلحنه المزروع داخله كنعمةٍ وهبةٍ، على عكسنا نحن الذين ندفع عمرًا كاملًا من أجل خطأٍ واحدٍ. القصيدة الحاملة أحلامنا المعلَّقة، الكلام، الأفعال، الاعتذار، لا شيء ينفع!

سبق السيف العذل.

التساؤلُ دنيويٌّ عن الاحتمالات التي نعيشها، مثل مسألةٍ إحصائيَّةٍ نحن البشر. نلتقي بالفيزياء لنكمل دورة الكمِّ والكيف ثُمَّ نلجأ إلى الكيمياء كي نرتب عناصرنا الذريَّة بأساسٍ واحدٍ، هو العلوم الذي يشرح العمود الفقري والأساس لوجود النخاع الشوكي.

لنعد إلى حيث وقفت، فقراءتي باتت صعبةً، وأخاف أن يغلبني الحنين قبل الوصول إلى بداية النهاية الممزِّقة لكلِّ القوانين والمقتصَّة

من التجارب؛ لتعطيها ناتج الصفر المذبذب. إذ تكاد تجزم بأنَّه الصفر الموجب فتغيِّر رأيك لتقول أنَّه الصفر السالب، كحال الأشياء والنتائج التي نخرج منها آخر القصة .

ناقصة: فقد مضى من العمر وقتٌ.

سالبة: فقد فقدت أشياء من روحك لن تعود إلى طبيعتها.

ناقصة: في نظرتها إلى الحياة، التي لا شيء فيها.

في المحصلة، هباءٌ منثورٌ.

لماذا كلَّما أردتُ التطرُّق إلى الأيَّام الأخيرة يسكنني الألم؟ فلا أستطيع الكتابة، إنَّما النوحُ في ذاكرتي والتفرُّد في آلامي.

حتَّى الكاتب في روايته تُلهيه الذاكرة، فيعرج إلى ملح الماضي الذي أحسَّه ممَّن حوله، وعزمَ إحياءَه في شفاه القارئ وتصويره؛ حتَّى لا تفنى داخله فقط، بل تُعاشُ في غيره.

الحياة لا تكشفُ حقيقتها إنَّما تُكتشف مع الوقت؛ ليحيا كلُّ قارئٍ قصَّته الخاصَّة، نتقاطع في أمور، لنتضاد في أخرى، أمَّا أنا – الكاتب– وهادي قصَّتنا واحدةٌ.

❖❖❖

هادي...

صباح الخميس 2016

المرادف لأحد أيَّام الشهر السادس، حزيران الميلادي.

صحوتُ مبكرًا على غير العادة، يملأني النشاط، أهرولُ على عُجالةٍ من أمري، وضعتُ عطر أمريكان مع هندامي المعتاد وشعري الأسود الغزير، لستُ على وفاق مع مريم، متى اللقاء؟ لذلك بعثتُ برسالةٍ فحواها وصولي باكرًا إلى حرم الجامعة قبل الموظَّفين وما تبعهم من إدارة. أتوجَّهُ إلى مبنى علوم الأغذية، نحو كرسيٍّ تظلِّله شجرة الأكاسيا. ما إن جلستُ وأشعلتُ سيجارتي الأولى حتَّى وصلت مريم جانبي مستهلةً بالسلام، ومباغتةً ببسمة السلام، مع التقاء الأعين وخلال لحظاتٍ من الزمن. الأرض توقَّفت عن الدوران والمحيط الذي نرتكزه سَكَنْ.

مرَّ زمنٌ طويلٌ لم أرَ لمعة العين هذه، الوجنتان والغمازة والكواكب جميعها أمامي خلال مريم.

تصحبني مباشرةً إلى بسمةٍ خفيفةٍ كنسمة صيفٍ تلامسُ ربيعًا

لطيفًا، لتقول معاتبةً نفسها:

- لم أدرس كما يجب، حتَّى أنَّني لم أنم ودون فائدةٍ أيضًا.
- ستكون الأسئلة سهلةً، لا تخافي؛ لكن لماذا لم تحضِّري على نحوٍ جيِّدٍ؟

ينكسر شعاع البسمة التي أخرجتها الروح الباطنة، ليبدأ أرق الجسد يُعاود دورته على مريم وبحرقةٍ، ورجفة خوفٍ، حاملةً عناءها نحوي ناظرةً بسواد عينيها المرتكزتين إلي :

- خائفةٌ جدًّا، وحيدةٌ... ضائعةٌ، متردِّدةٌ، لم تعد الدراسة تهمُّني، التخبُّط يحيط بي!

أقتربُ أكثرًا محاولًا تخفيف العبء عن كاهلها، وبلطفٍ يشوبه الذنب :

- أنا هنا، لِمَ الخوف؟ الآن عدتُ إلى الحياة يا مريم. اشتقت إلى ضحكتك، همسُ صوتكِ، نسيم الهواء جانبك، اشتقت إليكِ، أرجوكِ سامحيني.
- أعلم، أعلم هذا.

اكتفيتُ بكلمةٍ واحدةٍ، أشعرتني أنَّ أرواح المتحابِّين حتَّى في البُعاد تتحادث. ابتعدت عن أمر الفؤاد؛ فبعد الامتحان، لدينا المتسع من الزمن لنتكلم به، لهذا حثثتُها على الدراسة خلال الثلاث ساعات القادمة، التي تكفي لدراسة أسئلةٍ عدَّةٍ. وعلى مضضٍ مرَّت ساعات الرهبة، ودون أيِّ حديثٍ، المهم استثمار آخر ما تبقَّى من الوقت تحضيرًا للامتحان.

الأمر غريبٌ نوعًا ما، أقصدُ حالة الطقس الذي انقشع دفئه، زرقة السماء مختبأةٌ خلف السحاب، والجو أقرب ما يكون للشتاء. رذاذٌ خفيفٌ من المطر، لهذا سرنا إلى مبنى الاقتصاد، الطابق الثاني - جانب خزانة الكتب، التي حملت الكثير من أسرارنا، لم تحبِّذي احتساء القهوة والجلوس في الندوة، فقد أردتِ مكانًا يتخلَّله الهدوء، أنا معكِ في هذا الأمر، ثلاثة عشر يومًا يسبقها أيَّامٌ دون حديثٍ بيننا أو لقاءٍ يحتاجُ هدوءًا كاملًا من الكون؛ كي يُسمح للمشاعر حين انفجارها أن تحتويها الأرض وتنصتُ لها.

أردتُ أن تبدأي الحديث والأسئلة. شعرتُ أنَّ هناك كميَّاتٌ

هائلةٌ وملاحظاتٌ كثيرةٌ بحاجة أن تلقيها على عاتقي، لكنَّك صمَّمتِ على السكوت فبعثرةً الأفكار يلزمها الصمت. كنتُ بحاجة أن أسمعكِ، وتسمعيني.

عدَّلتُ من جلستي، إذ ركنتُ مقابلًا لكِ على الأرضية. العين تتكلَّم والروح للروح تسمع، المدَّة الماضية بكلِّ ألم مرِّها احتاجت هذا السكون لتخلد في مثواها كأنَّها لم تمرَّ.

بعدها استهلَلتُ الكلام منشغلًا بكِ، ماذا حلَّ بك حين الغياب؟ لا يهمُّ كيف أو لماذا؛ فالنتيجة معروفةٌ بيد الجاني، المهمُّ هو معنويَّة الناتج لا ماديَّته.

لِمَ أنتِ متخبطةٌ؟ ما الخطب سوى أنَّ الخطأ معروفٌ، وأكرِّر وعدي ألَّا يتكرَّر.

أنانيَّة حين لم تجيبي؛ بل وضعتِ سؤالي بسؤالٍ منكِ:

- كيفَ حال إلهام؟

تعجَّبتُ من السؤال، وببسمةٍ تدلُّ رحابة صدري وخوفٍ من إشعال حريق آخر يشعل الرماد الذي لم يهدأ بعد:

- لا أعلم؛ لم أحادثها، ولن أحادثها أبدًا؛ لأنَّها السبب فيما حدث.
- ليست هي السبب.
- السبب أنا، لكنَّها من ثانويَّات السبب، وكي لا أكرِّر الخطأ تارةً أخرى، قطعتُ وعدًا ألَّا أكلِّمها لأجلكِ.
- لم يعد يهم؛ ستحادث غيرها، وبعد وقتٍ من الآن ستحبَّ واحدةً أخرى.

أتوقَّف للحظاتٍ خلال ما قلتِ؛ علَّني أستوعب! لربَّما التشويش يشوب سمعي، ردَّة فعلٍ ليس إلَّا، وعليَّ إخماد النار ليس إشعالها:

- لن أحبَّ سواكِ، ولن أكرِّر ما فعلت؛ فليس لي القوَّة على غيابكِ، ولو لساعةٍ واحدةٍ؛ فلا عيش دونكِ.

تجيبني بنظرةٍ يتخلَّلها الإرهاق والتعب، قائلةً:

- وأنا كذلك، لكن...

عادت إلى الصمت فجأةً، لأستفهم:

- لكن ماذا؟
- لا يهم؛ متعبةٌ مرهقةٌ لا أكثر.
- سلامتك يا عمري.

تنظرين إليَّ بعينين تطلبان النجاة، وبشغف بسمةٍ احتاجت دهرًا طويلًا لتولد من جديد. ابتسمتُ أيضًا، ثُمَّ ألتمس يديكِ اللتين تزيلان تعب العالم وحزنه من داخلي، وتشفيان شعور الشوق الماضي ولياليه المتعبة.

يتابعُ الصمتُ طريقه، حتَّى تبادلنا أحاديث الدراسة وكيف مرَّ الوقت على كلينا خلال تلك الفترة.

ظننتُ تصرُّفًا آخر، ليس بهذه البساطة أبدأ، وبهذا الهدوء. صحيحٌ أنَّ الحبَّ معقَّدٌ يحتاج أشياء بسيطةً، لن يؤدِّي النقاش عن حادثة إلهام أيَّ تغييرٍ في الماضي؛ بل مشاكل تالية في الحاضر طالما اعترفتُ بالذنب وأقررتُ به لحاكمتي مستوجبًا العقاب، وقاطعًا الوعد بكسر ضلعٍ من جسدي دون كسره؛ فكسر الوعد يستوجب جرح الروح الذي لا يشفيه الدواء ولا يسكنه أيُّ فرحٍ.

هادئةٌ، متحفِّظةٌ، متعبةٌ، خانعةٌ.

فسرتُ ذلك بأنَّ الوقت كفيلٌ بذلك، فصرفتُ النظر وعدتُ بكِ إلى الوراء، إلى أيَّامٍ جمعتنا في المكان ذاته، خلال السنة الثالثة حيث كان مكاننا المعهود للدراسة، لا سيَّما لمادَّة الأمراض العملي، التي كانت مقسَّمة لأربعة أقسام، وبعد كلِّ محاضرتين أو ثلاثة، يكون رابعها امتحانًا لجميع فئات القسم الأوَّل والثاني من السنة الثالثة. طبعًا هربتِ معي من جلسة العملي آنذاك وذهبنا نحتسي القهوة، ثُمَّ ركنَّا إلى مكاننا هذا تحضيرًا للامتحان. يومها لم أنم ليلًا، وجلستُ جانبكِ على الأرضيَّة وأمامنا (النوط). بعد وقتٍ قصيرٍ استسلمتُ إلى النوم على كتفكِ، كانت لحظةً لا بدَّ من تسجيلها لديك وتوثيقها ببعض الصور التي تبعث على الضحك حتَّى النخاع، فصورة نومي كشخصٍ لم ينم منذ سنوات. أبدلُ موضع الجلوس من اتكاء رأسي على كتفكِ إلى التمدُّد على الأرض على نحوٍ كاملٍ، كأنِّي في مخدعي .

لم تَكُفِّي عن الضحك الهستيري بعد خروجنا من مدرج

الحلواني بعد الامتحان العمليِّ والتوجُّه إلى البيت. تمسكين الهاتف وتقلِّبين الصور وتبتسمين ناقلةً نظركِ إلى الهاتف المحمول ثُمَّ إليَّ، لأستفهم عن سبب الفرح المفاجئ، معلِّلة إعطائي هاتفكِ المحمول لأمارس الهستيريا معكِ، وأخبرك:

- أعانكِ الله على هذه المصيبة، جثَّةٌ وهمدت إلى النوم .

لتجيبي :

- هدية لطيفة، لا سيَّما أنها ساكنة جانبي تستريح، مثل طفلي.

فأجيب: ستكونين أجمل أمٍّ عرفتها البشريَّة.

أفتحُ أيَّ حديثٍ وأيَّ كلام ألهيكِ عمَّا به، لكنَّك بعد موجة الضحك بتذكُّر الموقف، تقولين بأسفٍ:

- حذفتُ جميع الصور، حذفت ذكرياتنا من هاتفي المحمول.

أجيبك:

- بألَّا تشغلي بالكِ؛ سنصنع الكثير من الذكريات أيضًا كما صنعنا سابقًا، وأيَّامنا محفورةٌ في ذاكرتنا ولن تموت، فلا

بأس ببعض من الصور التي حذفتها.

لتجيبي بكلِّ ضعفٍ بالبكاء الذي رماكِ بين أحضاني، ليس للكلام هنا مكانٌ. أفرغُ يديَّ لاحتضانكِ، وأفكِّر بما صنعتُ من أسًى إلى قلبك.

كنتِ بحاجةٍ ما تبكي إليه،

كما أنا بحاجةٍ إلى تأكيد وجودكِ من جديدٍ معي.

الألمُ يخرج على شكل قطراتٍ من الدموع،

تتفرَّغُ على صدري الذي أثقلكِ.

يا لجبروتنا نحن الرجال، ويا لحبِّكنَّ أيَّتها النساء!

- أرومتي لا تبكي، أرجوكِ؛ لا أحبِّذ رؤيتكِ حزينةً، دمعة عيناكِ تساوي الدنيا، أُفضِّلُ الموت على نزولها، أرجوكِ.

تبقين مختبئةً في صدري؛ فالعالم جميعه لا يستوعب ولن يخفِّف الكرى إلَّا صدر من نحبُّ، حتَّى وإن كان السبب في ذلك.

السماء تضامنت مع بكائكِ.

تذكرين ذلك اليوم كما أذكره، أم أنَّ الذكرى لعنةٌ سقطت على

قلبي لن تزحزحه عن قيدها مهما مرَّ من كاهل العمر؟

سؤالٌ يخطر على بالي، لا أعلم له جوابًا، مع أنَّه تحصيل حاصلٍ لا يفيد أيَّ قيمةٍ، إنَّما لتعزيز رائحة العطر الماضي الذي غمرنا معًا.

لا أقول هذا نتيجة العجز أو الشكوى، لا.

العجز، هو من خطأٍ اقترفناه لا يغتفر، أمَّا أنتِ اقتراف بلا خطأٍ حصل، وسأكرِّره إن عاد بي الزمن إلى الوراء.

ما شغلني رضاكِ وعودة مياه حبِّنا إلى عذب مجراها، بقدر تفكيري بمدى التعب الذي تجرَّأ على المساس بروحكِ.

عدنا سائرين بعد توقُّف المطر، مبلِّلي أطراف هندامنا بطين الطريق المحفَّر، متماسكين بأيدينا. تمسَّكت يدكِ بيدي وتكظَها لمرَّاتٍ كثيرةٍ، ظننتُ ذلك كثرة الشوق، والآن أفسِّر خوف الفراق أو دليله، كأنَّ يدكِ كانت تودِّع يدي.

حتَّى في الفراق، نتجرَّع العذاب نقطةً نقطةً، لنتمَّ المراسم على أكمل وجهٍ!

تحدَّثنا في أمورٍ بسيطةٍ خلال الطريق، عمَّا فعلتِ وماذا تصوَّرت

حين لم تردِّي على رســـائلي واتصـــالاتي .

تقابلينني بشحوب وجهٍ يلامس الغيم يكاد يُثلج، فلن يشبع حزنه الدموع، لتقولي بعنفوان الزهر :

- لم أذهب، لا حاجة للعودة، كنتُ وسأظلُّ جانبكَ، حتَّى أنا أقترف جسدي الكدر والحمى على مصابكَ.

وما بين أخذٍ وردٍ من الحديث الذي لا يُمَلُّ منه في أثناء الطريق، كان الكلام المشبع بالحنين الممتلئ شغفًا وتوقًا.

لحظاتٌ تُدرس في قوانين الجذب ومراسم الحبِّ نقضيها سويًّا.

لن أتحدَّث كثيرًا؛ كيلا أتعبكِ، سأخبركِ فقط أنِّي أحبُّكِ.

الرسالة التي بعثتها إلى مريم، بعد دقائق قليلةٍ من ابتعادي عنها عند مفترق الطريق المؤدِّي إلى البيت.

ومع بسمةٍ أخرى أكملت بها يومي حتَّى المساء، الذي يطيب لنا الحديث خلاله على الإنترنت.

التقيتُ أنس خلال العمل، وعدنا معًا إلى الغرفة المشتركة. لا تستدعي المسافة من المطعم إلى الغرفة أن نأخذ تاكسي، لذا كالمعتاد

نعود سائرين، نتأمَّل الهدوء المرافق حارات الشام الساكنة، لا سيَّما عند انقطاع التيَّار الكهربائيِّ. لا يبدو على كلينا التعب إلَّا وقت العمل، وما إن انتهى العمل، ترى التعب زال وعاد النشاط إلى الجسد. لاحظ أنس البشاشة الظاهرة على وجهي عكس عادتي في الآونة الأخيرة ليقول :

- للأسف، صديقي لا أراه حين الجامعة، فقط في أثناء العمل، ولولا أنَّه مجبرٌ على ذلك لَمَا التقيته.

أجيبه مبتسمًا ومعلِّلًا عتابه اللطيف:

- كنتُ مع مريم، تعلم كم ضاق ذرعي؟ وكانت هذه فرصتي السانحة لأراها من جديدٍ وأحادُثها.

يتجاهل أمري ليذهب إلى ما يصبو إليه من البداية:

- وكيف سارت الأمور؟ مع علمي بالنتائج الواضحة على وجهك لكنَّني أريدُ الحادثة كاملةً منذ بدايتها إلى النهاية. أسمحُ ببعض الكتمان الخاصِّ بين العاشقين.

- عدنا إلى حيث كنَّا، وكما قُلتَ سابقًا أيُّها المُنجم، فترة

عقابٍ منها نتيجة تصرُّفي.

أسردُ له ما الذي حصل من حين ذهابه حتَّى يومنا هذا، ليكلِّمني عن النساء وجبروتهنَّ في اغتمام أيِّ أمرٍ لمصلحتهن.

- أتعلم يا هادي أنَّ المرأة هي الأقوى، ولو يبدو لنا غير ذلك؟

أستغربُ من جملته :

- لا أظنُّ ذلك!

- لأنَّك شاعر، لا تعتقد هذا الأمر أيُّها المتنبي، فأنت تنظر إلى المرأة من منظورٍ شفَّافٍ، كمنظور الشعور والحسِّ المرهف الذي لدى المرأة دون النظر إلى الجانب الآخر، كقصَّة الحمل مثلًا تسعة شهورٍ إضافةً إلى أمر الإنجاب أو مايعرف بالطَلق الذي كُرِّمت النساء بسببه لشدَّة ما يذقنه الألم، فالجنة عند أقدام الأمهات مكرمة لتحملهن المَشَقة. الكثير من الأمهات اللاتي فقدن الحياة في هذه اللحظة!

- لا أنكرُ هذا الأمر والجلد، إنَّما أنكر المقارنة بين الرجل

والمرأة. لكلٍّ منهما درجةٌ من الصبر والتحمُّل، لكنَّها لا توضع بمقياسٍ كأعلى أو أدنى، ودرجات التفاوت تختلف بين امرأةٍ وأخرى أو رجلٍ وآخر؛ فما بالك بين رجلٍ وامرأةٍ وعن انصياع الأمر لهنَّ واغتنام الفرص؟ لا أتوقَّع.

- لم أقصد قوَّة البنية؛ إنَّما قوَّة الصبر والتحمُّل.
- كِلا القصدين سواءٌ يا مُتنبي.
- أما عن اغتنام الفرص فأنت خير دليلٍ؛ لم تتحمَّل دقائق دون الاتصال أو حتَّى الكَفَّ عن التفكير بمريم، أمَّا مريم تحمَّلت أيَّامًا مكابرةً على قلبها.
- هذا أمرٌ آخر، كنتُ المخطئ لذا توجَّب عليَّ فعل ذلك.
- وإن يكن ذلك، كنتَ المُخيَّر بالانتظار بعيدًا منذ بدايتها، لم تُجبر أن تعلِّل وتستسمح فورًا.
- يا أنس هذا الحبُّ، لا يسمح لك بالانتظار على ألمٍ كنتَ سببه، ولا الخوض في القوَّة والتحمُّل هنا؛ فكلُّ قصص العشق لا كرامة يدخلها ولا صبر يستثنيها.

- لا تغيِّر سير الحديث لتجعلَ النهاية في مصلحتك. لم أدخل الحبَّ بين جانبين وأقارن بينهما، مع أنَّك تعلم أنَّ في كلتا الطرفين هناك من يحبُّ أكثر، وهناك من يتألَّم أكثر، كما وهناك من يصبر أكثر. كما أنَّ منهم من لا يتخلَّى عن كرامته، التي تزعم أنت، أن تنحِّيها جانبًا. أنت ومريم لستما مقياسًا، إنَّما مثالٌ، في حديثي الذي جال بخاطري، أيُّها المستسلم لأمرها.
- تودُّ إخباري بضعفي تُجاه مريم؟ نعم لك ذلك، لكنَّك لا تعلم ضعف مريم بالنسبة إلي.
- الذي يبدو لي أنَّك المغلوبُ على أمره دائمًا يا صديقي، و لا أعيبك في ذلك؛ بل مثالٌ لي لأبقى حرًّا.
- لم يجبرك أحدٌ على العشق. حتَّى أنَّكَ لا تقترب من النساء، لا زلتَ صغيرًا على الهوى يا عزيزي.

نضحك كلانا، ليقول :

- وسأظلُّ الصغير القوي أيُّها الكبير الضعيف.

أعود إلى مجرى الحديث :

- تعلم يا أنس أنَّ الحياة عادت إلى روحي اليوم لمَّا رأيتها.
- أرى ذلك في عينيك، أتمَّه الله لكما يا صديقي.
- لو لم تكن مريم، لبحثتُ عنها وما كللتُ التوقُّف في حارات الشام متمسِّكًا برائحتها؛ حتَّى أجد السبيل إلى رؤيتها.
- أرى عودة الكلمات أيضًا بعودتها، كما عادت روحك إلى الطيران مجدَّدًا.
- نحن هكذا في الهوى!

وصلنا البيت لينتهي الحديث؛ فأنس سيخلد إلى النوم، وأنا أخلدُ إلى أحلامي مع مريم، أحادثها عبر الإنترنت، إلى أن يحين وقت نومي.

يظهر الصبحُ مباغتًا الأحلام التي حلَّت ضيفًا خفيفًا خلال ليلٍ هادئٍ.

أستُهل البدء به دراسة المادة التالية مع أنس قبل الذهاب إلى

العمل، مع رسالةٍ أقدِّمها كهديَّة اهتمامٍ مفعمةٍ بالورد إلى مريم؛ تذكرةُ اهتمامٍ بسيطةٍ لا بُدَّ من وجودها.

تردُّ عليها بعد وقتٍ طويلٍ أحرجَتْ بها هجمتي الصباحيَّة، ليدقَّ ناقوس الخوف داخلي خفيةً، فأربطُ ما حدث أمس بخوفٍ هامس، يتخلَّل الشمس حين سطوعها في شتاءٍ باردٍ.

أستفهمُ داخلي وأقول نهاية التلاطم بين أمواج صدري، أنَّ الأمور ستكون بخير، فهي تحتاج فترةً نتيجةً الجرح الذي أنزفتُه، الطيبة والعذر يحبِّذُ للعاشقين وضعه لإتمام علاقتهما.

القليلُ من الصبر، الكثيرُ من الاهتمام، العفو عن الأخطاء وإن تكرَّرت، لكن هناك أخطاء لا تُغتفر.

مرَّ الوقت ضيفًا غير مرحَّب به نتيجة نهمِ الشوق الذي اعتراني نحو مريم. لم يكن يومًا واحدًا كافيًا للنظر المطوَّل بعينيها أو المكوث جانبها .

الوقت معكِ يا مريم يُحتسب من العمر.

أمَّا سواه، فهو فراغٌ وتتمة عددٍ لا ضرورة له.

❖❖❖

مريم...

لم أستطع إخبار هادي عن حسن، خشيتُ خسارتَه، ضعفي كان أكبر من إخباره عن هذا الذنب، صرتُ مرتبكةً أبعد حدَّ خلال النظر إلى عينيه الصافيتين اللتين خُيِّل لي أنَّهما الفردوس؛ بما يحتويان من لطفٍ وحنوٍّ وطيبةٍ. يمتلئان رغبةً بوجودي أمامَها. خفتُ كسرَ هذه النظرة مع أني كسرتهما مسبقًا، ليتني لم أرتكب ذلك! ما كان همِّي الجامعة أو الحياة وما بها؛ فلم تخطر على بالي، إنَّما حاجتي وشكواي هادي، وسبيلي في نار الحيرة، نار إخباره عن السيف الذي سيقطع أواصر الثقة بيننا، كمنحى سيغيِّر ما فاض من مشاعره تجاهي بالحبِّ إلى مشاعر مضادَّةٍ؛ نتيجة الغيرة التي تنفث النار، مؤديةً إلى الكره الذي يبلغ عدم الثقة من جديد. سيكون جرحًا مؤلمًا يدقُّ ناقوس الحبِّ.

يجبُ التفاؤل قليلًا، سأضع بعضًا من الأمل، لكنَّني في حالةٍ يُرثى لها، فالموسمُ بلغ الحصاد وما بها من بذور زُرعت مغايرة للزهر.

الحصاد خطبتي لحسن، التي زرعت ببذور حبٍّ هادي لي، وحبّي له. معادلةٌ لا تستوفي مطلب العقل ولا يستوحى خلالها إلَّا الاستحالة، فالمعادلة تكتفي بحبٍّ واحدٍ وشخصٍ واحدٍ هو هادي، الذي وضعته بيدي أبعد ما يكون خلال هذه المعادلة الصعبة، إلى متى سأظلُّ مخبِّئةً أمر خطبتي عن هادي؟ وعقد القران الذي سيكون بعد امتحانات هذه السنة التي باتت قريبةً جدًّا. لا ينبغي السكوت أكثر من هذا، فحبِّي لهادي دليله عدم المماطلة بالوقت فالوقت ليس لمصلحة أيٍّ منَّا.

بعد أن أخبره، ماذا سيحدث؟

يخاصمني هادي فأتزوَّج حسن؛ أخسر هادي.

وإن لم يخاصمني هادي، يجب العودة إلى الحرب مع عائلتي وأكسب هادي.

بالحالتين، لا أعلم ردَّة الفعل التي ستأتي من هادي.

لا أستطيع فسخ خطبتي تحت أيِّ سببٍ، الحلُّ الوحيد أن يُقدِم حسن على هذه الخطوة، والنسبة المئوية لا تزيد عن واحدٍ بالمئة.

رغم برودي في التعامل معه، كلامي وأسلوبي، ما يزال يبادر الكلام والحديث وطلب برؤيتي في أثناء زياراته أهلي، وأحيانًا طلبه من والدي أن أراه ليتم التعرُّف على نحوٍ أكبر بيننا في مقهى الخواجة القريب من الجامعة الواقعة بمساكن برزة.

خلال الأمواج المتلاطمة داخلي، تدخل غرفتي عائشة، لتجلس مواربة لي على السرير مخاطبةً:

- كيف حالكِ؟ رأيتِ هادي؟
- لست بخير. رأيته ثُمَّ جلسنا سويًّا لمدَّةٍ لا بأس بها.
- أخبرته؟
- ليس بعد؛ لم أكن بتلك الشجاعة.
- لا يلزمكِ الشجاعة، يلزمكِ الصدق فقط.
- أخشى خسارته أيضًا، لم أحسب هذه النقطة، ولا أعلم كيف سيكون تصرُّف هادي!
- إن كان يحبُّك لن تخسريه، مع أنَّ الأمور جميعها تشير إلى ذلك.

- كيف هذا؟ أنتِ أيضًا يا عائشة، تزيدين الطين بلَّةً!

- أريدُ أن تفعلي الصواب، ولا تزداد البلَّة أكثر؛ هذا أمرٌ لا بدَّ من أن يعلمه هادي، ربَّما سينهار من المصيبة؛ مخطوبةٌ لحسن واقترب موعد عقد القِران، لكن النيَّة أنَّكِ تدركي الخطأ وتخبري هادي بالأمر ليقف جانبكِ، على أمل أن تُفسخ الخطوبة.

- لم لا أنتظر أمل فسخ الخطوبة وحدي دون إشراكه في هذا الانتظار؟ أشعر أنَّ هكذا أسلم وأفضل.

- وتُخفي على هادي أمرًا كهذا؟ وهو الأقرب إليكِ من روحكِ؟ ثُمَّ إنَّ الأمل الذي تعيشين على أطلاله هو الموت بالنسبة لهادي، وأمر فسخ الخطوبة غير مرجَّحٍ للظروف الماثلة بها، إلَّا إذا تمسَّكتي بمطلبكِ ومجابهة أبينا بهذا.

- لا أقوى على تكرار المجابهة مع أبي، اكتفى سابقًا بحربٍ باردةٍ؛ أمَّا الآن ستكون حربًا مباشرةً، عداكِ عن رفضه ما أُريد وتحت أيِّ سببٍ يندرج.

- أيَّ سببٍ يا مريم يكفي أن تبقي عند رأيكِ، وتخبري حسن بهذا الشيء أيضًا، أنَّك لا ترغبين به زوجًا لكِ أو يُقدم حسن على هذه الخطوة، وإن لم تفعلي؛ ذلك فالفراق بينكِ وبين هادي لا محالة.
- لا أستطيع مجابهة أبي أبدًا، أمَّا حسن لا أظنُّه سيقدم على الخطوة إلَّا خطوة الزواج بي؛ لا يملُّ من إرسال الرسائل صباح الخير ومساء الخير وأحيانًا الاتصال والتحدُّث بأمورٍ تبعث النفس على الغثيان. أجيبه ببرودٍ وأجوبةٍ مختصرةٍ لكنَّه لا يشعر أبدًا.
- عليكِ إخبار هادي بجميع الأحوال، أمَّا من ناحية الخطوبة، إذا أردتِ النتيجة الإيجابيَّة يجب أن تقدِّمي أنت بالخُطا، والسبَّاقة إلى إنهاء الأمر.
- يا عائشة، لن يقبل أبي أيَّ عذرٍ وأيَّ سببٍ؛ فهو يعلم بوجود هادي في حياتي وأنتِ تعلمين ذلك خير علم!
- مريم عزيزتي، أعلم أغلب الأمور؛ لكنَّ الحبَّ الذي نريده

يجب أن نتمسَّك به تحت أسوء ظرف، إلَّا إذا كانت النيَّة التضحية بهادي مقابل الاستمرار مع حسن، وهذا يعني تضحيةً بحياتك، أو تضحِّي بحسن مقابل الوقوف ضدَّ أبينا، وهذا تمسُّكٌ بهادي.

- أتصدِّقيني إذا أخبرتك أنِّي إلى الآن لا أعلم أين أنا، أو ماذا فعلت وسأفعل؟

- خطئكِ يا مريم، وعليكِ تحمُّل عواقبه. أخشى عليكِ وخائفةٌ أيضًا لهو أمرٌ صعبٌ، القلب يريد وتعلمين ما يريد، لكنَّ الواقع غير ذلك فهو أبعد من الوقوف جنبًا إلى جنبٍ مع قلبك.

تنهَّدتُ حتَّى الكلام ليس له معنًى، الفعل معتلٌ بفعلهِ، أيُّ خطوةٍ تُعطي نتائج غير معلومةٍ، وجميع الأمور لا تؤدِّي إلَّا نحو المزيد من الصعاب، أصعبها هادي؛ بأيِّ وجهٍ سأخبره، وأيَّ اختبارٍ جررته إليه بكفَّيَّ اللذان وصفها بالبراءة.

تقف عائشة متأهِّبةً للذهاب لتقول :

- كوني قويَّةً يا مريم، الحياة ليست للضعفاء يا أختاه.

تبتسم بسمةً طفيفةً، وتستأذن الذهاب، ودون استئذان يعود العقل إلى العمل والقلب للنبض :

- هادي. سمرتي... هادي.

يجافيني النوم، تبتل الدموع من خدي فتهبها بعضًا من تورُّد الحزن، وما بين فكرةٍ حزينةٍ وسيناريو آخر يبعث الأمل، تنوب المخيِّلة في البحث عن حلٍّ.

العقل يضطر التفرُّد عن القلب فيختار الانغراس في الأمر،

ويعطي الزمن يد الطبيب في مداواة جراح مريضه من السقم، يأتي دور القلب لوحده فيختار الصبر على الجفاء والقفار.

يريد الثورة ضدَّ المستبدِّ؛ ليولد عبد الرحمن الكواكبي مرَّةً أخرى على يد الحبِّ.

السيناريوهات متبدِّلة التفاصيل لتزداد صعوبةً وتزاد حدوديَّة سيفها؛ حتَّى يستسلم الجفن إلى الغموض فتغوص مريم في نومها.

ما بين الصدمات وبين الكدمات،

الضربات تتوالى على صدري كألا حياة.

سجينة الوقت والقلب والعقل،

سجينة الروايات،

التي تعدَّت خيالي،

فأيُّ نتيجةٍ ستنتهي بها المطبَّات؟

أعوِّلُ على قلبي الذي هواك،

أم أنوح مع عقلي؟

الذي صرَّح عدمَ حياتي لسواك!

نبضي وقوَّتي وضعفي، وجبروتي الذي أنهكني، فما حظي من الحبِّ إلا برشفةٍ بعدها تتوالى الندبات.

جسدي قفار، روحي بور، جسدي فيافي، روحي بلا ظهور، مضطرة البكاء وحدي.

ظننتُ الحبَّ بكاءٌ على صدر من نحبُّ، لا الاختفاء بعيدًا، بذاتي التي سلَّمت ذاتها إليك.

مجهدةٌ في الحفرة التي سقطت فيها، فسقطت أوراق شجري.

لأعاني يا هادي، يا سمرتي وقهوتي، يا دوائي ونكبتي.

❖❖❖

حسن يتصل عند الظهيرة.

أمسكتُ الهاتف وبصبرٍ شديدٍ حتَّى آخر لحظةٍ من انتهاء المكالمة، أجبت بكلماتٍ خفيفةٍ كنعم ولا وإجاباتٍ مختصرةٍ، بعد أسئلة الحال والأحوال الروتينيَّة النزقة. طلب رؤيتي غدًا بعد انتهاء تقديمي الامتحان في الجامعة.

يا لهذه الوقاحة، أقول في سرِّي لكنَّني أقبل الطلب.

ربَّما فرصتي لأخبره عدم اكتراثي له، ولا أودُّ رؤيته مجدَّدًا، مخاطبةً عقلي بهذا.

أغلقتُ الاتصال، يشغلني ما هو أسوء حين رؤية هادي، التكلُّم معه بأمر خطيبي الذي لا يعلم بأمره، وأنَّني أريد الذهاب على عجلةٍ من أمري لأراه، يا لحظِّي العابس !

الوقت دائمًا ليس معنا، ضيِّق فيما نريد ومتَّسع لما نكره.

حتَّى بالغد، بدأت الحيرة، يأتي لأرى هادي، وألَّا يأتي كيلا أرى حسن.

خلعت الدراسة من أمامي، اكتفت النفسُ من كلِّ شيءٍ فالضيق حبس الأوكسجين خارج جسدي!

❖❖❖

الفصل الخامس

أسيرُ مكبلة الخطا، فأدراج الطريق مرتجفةً أمامي توجف جسدي في المسير، مُصابي حالُه مواربٌ داخلي وما ظهر على العوام في الأرجاء يسيرُ، أبعثُ برسالة إلى هادي مفادها أنَّ الأنفاس في ضيقٍ والروح في تعبٍ، سأنكفئ بعيدًا عن الجامعة متجهةً إلى الحديقة في صباح ستخلو خلاله الأناس؛ ليعمَّ صوت العصافير ونسيم الهواء محيطنا. أجلسُ على المقعد الخشبيِّ مواربةً ظهوري، ألتفتُ نحو باب الحديقة فهادي بات قريبًا منِّي.

يخدشُ السور المحيط أنفاسي بقولهِ:

- صباحي أنتِ، لا صباح يضاهيه، ولا حياة تساويه، ولا سماء تصلُ ما يُريه.

أرتعشُ محمرَّة الخدّين، ذابلة الأوراق في خشيةٍ وخوف اعتراني، دون جواب يتابعُ هادي حديثه:

- كأنَّكِ متعبةٌ.

- لا شيء.

لكن عيناي لهما رأيٌ آخر، فالوردة بدأت ببوح عطرها على الوجنتين. يكرِّرُ هادي سؤاله، فيجلس جانبي ويقتربُ ممكسًا يدي بعدما انهالت الدرر من عينيَّ، ليقول:

- لِمَ البكاء؛ حبيبتي أرجوكِ لا تبكي، فو الله روحي حينها تبكي.

أستجمعُ الكلمات في لساني لأهمس له برجفة الخطيئة والظلم :

- لستُ بخير، لقد تغيَّرت أشياء كثيرةٌ ولا أقوى على حملها وحدي.

- أنا جانبكِ لأحمل كلَّ شيءٍ عنكِ، ألم تحملي قلبي عنِّي؟

ألم تكوني جانبي حين المرض، حين التعب، حين الحزن والأسى، حتَّى حين الفقر؟ أنتِ الغِنى لدي!

توحي كلماتهُ بالطمأنينة داخلي، فهي من شفاه من أحبُّ، هادي الذي تناجيه الروح ويختاره القلب. أحاولُ الثبات من جديد، لكنَّ الدموع تأبى التوقُّف، بل السقوط. بدأتُ في مقدِّمة صريحةٍ باشَرت

بها دموعي دليل سقوط الروح في وابل الهم، فأتحدَّثُ عمَّا آلت إليه الأمور، معلِّلةً تصرُّفي كردَّةٍ فعلٍ مجنونةٍ سقطتُ في شِراكِها.

ردَّة فعلِه التي أثبتت جبروت حبِّه وصبره؛

فالحبُّ يجب أن يقاوم (هكذا قال)، بعدما بادلني الدموع أيضًا مقبِّلًا يدي، تصوري يا عائشة بكى أيضًا!

هربَ من الكلام إلى أحضاني مخفيًا عينية اللتان صادقتهما الدرر المكنية في الجوف، ما أحدث ضجَّةً أو خلافًا أو عتبًا، اكتفى بالبكاء داخل صدري لدقائق بسبب الصدمة.

بعض الأحيان، نتمنَّى أنَّ الحاضر كابوس سنصحو منه فجأةً، فالحياة التي نستهم بها تغيَّرت إلى وضعٍ لا حيلة بأيدينا؛ سوى الخنوع لأمر دنونا خلاله. ليتنا نستطيع الهرب ولو للحظاتٍ، أردتُ الهرب معكَ خلال وجودكَ في أنحاء صدري مثل طفلٍ، ها أنتَ، هل هكذا الحبُّ؟ يجعلنا مكتوفي الأيدي وفي الوقت نفسه قاهرو العالم لأجل من نحبُّ.

نحن ضعفاء بالحبِّ حين التخلِّي أو الخيانة، لا نملك قوت

البسمات سوى العابرة لمن حمل نفسه وترك الذكريات، ليت الحال ليس هكذا.

قلتُ في بكاءٍ والكلمات تخرج في حروف متقاطعة :

- صدقتَ حين قلت بأنِّي ظالمةٌ، فها أنا السبب في دموع كلينا.

لم تجبني ولم تبتعد، ترتجفُ بردًا وفزعًا، تحتضنِّي وكأنَّك تخشى أنَّها المرَّة الأخيرة ثُمَّ تنظر في عينيَّ لتمسح دمعي ثُمَّ دمعك، الذي أخبرني أنَّك لن تتكرَّر.

لا يبكي الرجل إلَّا حينما يصل العناء قمم الجبال، ويلامس غيم السماء فيسقي الغيث إلى ربوع وجنتيه، بعد حَبِّ العزيز المداعب مقلتيه كنزٌ يسقط لأجل الحبِّ.

ينظرُ إلي، فأنظر قائلةً:

- أحبُّكَ، ولا أتصوَّر حياتي دونكَ.

تجيب في حسرة الخسارة :

- لكنَّك خطيبة أحد سواي يا حبيبتي، وحرامٌ عليَّ قول أيِّ

كلماتٍ اعتياديَّةٍ في العشق بيننا.

- أجيبكَ هناك أمل، مع أنَّه ضئيلٌ هناك أملٌ!
- أيُّ أملٍ سوى أن أُقدِمَ على خطبتك؟ سأذهب اليوم إلى أبيك وأخبره أنِّي أريدك حلالاً لي، وليفعل بي ما يشاء.
- أرجوكَ ياسمرتي، هكذا تصرُّف إهانةٌ لي، عداك عن أنَّ أبي الذي يعلم من أنت وماذا تريد، أتريد تجديد حبسي؟ أخبرتك عن الظروف التي افتعلها من أجلك، وكميَّة الغضب الملجم داخله غير المعلن، بتصرُّفك هذا؛ سيكون لاحقًا معلنًا وصدِّقني، لن تصبح الأمور بخير. الآن نمتلك أمل ذهاب حسن في حال سبيله، فأنا لا أبادره الحديث ولا الكلام وباردة في التصرُّفات والشعور.
- الأمور ليست بخير أيضًا وأنتِ مخطوبةٌ لغيري، يرى عينيك، يهمس كلامًا معسولاً لأجلكِ وبعدها سيقول لك أحبُّك، فماذا سيكون جوابكِ؟
- انتقل من أمر أبي وبلواي إلى الغيرة التي تعتريه، غيرة

التملُّك وغيرة العاشق، سؤاله قنبلةٌ موقوتةٌ ستهتكُ عزم الأمور؛ لهذا كففتُ عن الكلام ونظرت إلى عينيه، ثُمَّ بادلت الهجوم بالهجوم :

- ألا تثق بأنِّي أحبُّك! ألديك شكٌّ بأنِّي سأقول هذه الكلمة لسواك؟ حسنًا، تعلم أنِّي لا أكذب. تأخَّرت عليكَ في الاعتراف لكنَّني حالما صحوتُ من الصدمة وما فعلت لم أجد مسوِّغًا أخبرك به، لا أريد مسوِّغًا كاذبًا إضافةً لأنِّي لا أريد خسارتك تعلم، لماذا؟ لأنِّي أحبُّك، أحبُّكَ، أحبُّكَ وإلى الآن لا أتصوُّر أنَّك لسواي أو أنا لسواك.
- أعلم يا مريم لكنَّني أخاف وخوفي يزيد أكثر؛ ماذا سيحلُّ بنا بعد عقد القران؟ سيمضي الوقت سريعًا لأنَّنا نودُّه بالوقوف والتأنِّي.
- حينها سأنتحر! يرضيك ذلك سأنتحر.

أقولها بصوتٍ جهوري

- أيَّ انتحار؟! حتَّى نطقًا لا تنطقي هذه الكلمة!

- لتعلم أنَّ الموت أرحم من جمعي في بيتٍ واحدٍ مع أحدٍ آخر غيرك.

يمدُّ يده إلى خدِّي بلمسةٍ ساحرةٍ بعد نبرتي التي ارتفعت، كي يمتصَّ الخوف المرافق للعصبية، ثمَّ يقول :

- لن نصل هذه المرحلة، الحبُّ لا يموت، وحبُّنا سيحيى، ولو كلَّفنا الانتظار والصبر على أملٍ أقلَّ من قيد أنملة سيدخلها جملٌ. سأنتظر؛ فالأشياء العظيمة تحتاج صبرًا عظيمًا.

شكرًا لك يا حبيبي، وأعتذر لأنِّي لم أخبركَ سابقًا.

- ليس هذا المهمُّ، المهمُّ أنتِ، المهمُّ أنا وأنتِ، وها أنتِ أخبرتِني.

مضى الوقت سريعًا بين حديثنا الذي استوجب الكثير من الوقت، وما إن اقتربت الظهيرة حتَّى يأتِ اتصالٌ واردٌ من حسن.

أخذني هادي حتَّى أنَّني لم أخبره عن موعدي مع حسن، وها هو يتصل ليسألني متى يأتي إلى باب الجامعة لاصطحابي إلى مقهى

الخواجة، أنظرُ إلى هادي الذي شعر بأمرٍ مريب ليقول :

- حسن؟

- نعم، أتسمح لي؟

يشيرُ بعينيه بالموافقة على مضضٍ، لم ينطقها قلبه لا يريد هذا أبدًا.

أجبتُ على الاتصال، فبعد السلام سألني حسن عن مدى جاهزيَّتي وإتمامي للامتحان الذي لم أقدِّمه، فأجبتُ بأنِّي أحتاج ما يقارب النصف ساعة حتَّى ألتقيه عند باب حرم الجامعة، فأجاب بأنَّه بعد دقائق خمسٍ سيكون منتظرًا بسيَّارته الخاصَّة. لم آبه بذلك، حتَّى بعد إغلاق الاتصال والنظر إلى هادي الذي سمع إجابتي دون إصدار صوتٍ.

أعدتُ الهاتف المحمول إلى حقيبتي وأخبرتهُ التأهُّب للذهاب إلى الجامعة ليجبني:

- سأظلُّ هنا، لا أودُّ رؤية الجامعة.

- ألا تريد السير معي يا سمرتي؟

- ليس ذلك، لكنَّني أحبِّذُ البقاء هنا قليلًا، ضجيجُ قلبي لا يسمح لي بالذهاب، أردتِ أن نلتقي هنا ولم نقدِّم مادة اليوم فلماذا أذهب؟
- معك حقٌّ، فحسن ينتظرني عند باب الجامعة ولولا هذا لكنت سأذهب إلى البيت، وستوصلني!
- هيَّا إذن لأصحبك إلى البيت.
- وحسن؟

ثُمَّ صمتُ خشية التوبيخ منه، فبعد لفظي لاسمه، نظر نحوي نظرةً قاسيةً، يزمُ شفتيه معتصرًا غيرتهُ خلال عينيه ووجنتيه، ليقول:

- ليس ضروريًا أن تريه، أخبريه أنَّكِ بحاجةٍ إلى الراحة بعد يومٍ متعبٍ من تقديم الامتحان.
- لو كان هذا الخيار متاحًا لما تجنبته.
- كيف ليس متاحًا وهو ضمن الخيارات؟ قبل قليل تخبريني أنَّك لا تريديه، والآن ها أنتِ على موعد معه، وليس

الموعد الأوَّل!

أجيبه بنبرةٍ حادَّةٍ مثل نبرته التي نعتني بها :

- نعم ليس متاحًا؛ فأنتَ لا تعلم ما المتاح وغير المتاح بقدري، ونعم هي ليست المرَّة الأولى، وهذا الأمر ليس عيبًا أو حرامًا؛ فهو خطيبي أمام الله والناس، وأبي وأهلي على علمٍ بذلك، وقبل أيِّ موعدٍ يطلبه من والدي قبل طلبهِ مني.

يشيحُ بنظره عنِّي، معلنًا الاستسلام أكثر ممَّا مضى ليتكلَّم بنبرةٍ هادئةٍ تمتلئ غليانًا يغلب في ظاهرها البرود فقط:

- ليس حرامًا! إذن أنا الحرام في كلِّ الأمر.
- ليس كذلك يا سمرتي، لا تعتقد أنِّي أودُّ الذهاب فأنا حتَّى وإن كنت معه ستكون أنت فقط معي وداخلي. خائفةٌ أكثر منك وخوفي دليل حبٍّ لك.
- بما أنَّه دليل حبٍّ، عليكِ إذن تغيير الأمور يا مريم؛ فلا شيء يتغيَّر من تلقاء نفسه!

- هكذا إذن، ها أنت تضع الحِمل كاملًا على كتفي بدل تخفيفه وتزيد ذنبي ذنبًا! أليس كما تكلَّمنا قبل قليل؟ أمل ترك حسن كيف سأتركه إذا لم أخبره أنِّي لا أحبِّذ رؤيته، ألا تسمح لي بفرصة رؤيته لأخبره بهذا الأمر؟!
- لن تخبريه يا مريم!
- ها أنت تعرف النتائج أيضًا، وتعلم ماذا سأفعل وماذا لا أقوى على فعله! أنا ذاهبةٌ إلى الجامعة، لا تأتِ معي؛ أخشى أن يرانا حسن، حينها المصيبة ستصبح مصيبتين، هذا ماتريد سماعه.
- مريم!

أقفُ واضعة حقيبتي على كتفي، يشيح هادي بنظره بعيدًا عنِّي بعد جهره اسمي بصوتٍ عالٍ.

- لماذا لا تنظر إليَّ وتجيبني؟ أنت افتعلت هذا النقاش، حتَّى اسمي الذي كنت تناديني به لا تنبس بذكره أيضًا! سمرتي أريدكَ معي لا أريدك ضدِّي، إذا أردتَ منِّي تحمُّل العقاب

هذا فلن أستطيع تحمُّله وحدي.

مضطرةٌ للذهاب ولن أتأخَّر، سأخبركَ حالما أصلُ البيت كي تعلم أنَّني لن أظلَّ سوى دقائق معدودةٍ لا تكفيه نطق السلام!

يعود بنظره نحوي ليقول:

- كوني بخيرٍ.

أنظر إلى عينيه لوهلةٍ:

- وأنتَ كذلك، سأشتاق لك.

- وأنا أيضًا.

ثُمَّ أسير مبتعدةً عن هادي وأنا أباري الهواء بالالتفاف نحوه وهو على الكرسي، أريدُ منه أن يلتفت نحوي، يراني حتَّى وإن كان ظهري مقابلًا لكتفه الأيمن مبتعدةً عنه، جالسٌ يضع يديه على وجنتيه مطأطئ الرأس، كأنَّ جبلًا سقط على كتفيه، فأعياه الثقل.

الصدمة، الحقيقة، الواقع، الحلم، الاختلاف والخلاف حينًا، اللهفة في الحين ذاته والسلام.

ما بين الحقيقة والحلم، ينتاب الشعور داخل الأرجاء، كأنَّ

الذي حولنا تلاشى إلى العدم، وشُيِّدت في المخيِّلة قصورٌ من البهجة والفرح، حتَّى تؤول عائدًا منكسرًا بتلاشي الأبنية من حولك، مستيقظًا من الجوف الذي يتظلى؛ فتستفهم الحال، أين أنا الآن؟ بعد كلِّ الذي عملت، والذي شيَّدت من أفعال وأقوال وسنين مرَّت، على علاقةٍ أشبه بالمدينة الفاضلة، أو كأنَّني كنت في الجنَّة، حان دور الخروج منها بذنب القدر، الخاضعين له طوعًا.

لو اتطلعتم على الغيب، لاخترتم الواقع.

تتغيَّر الأشياء خلال لحظةٍ، فالذي شيَّده محمود درويش في الجدارية، نامت كما القصور المهجَّرة المنكسرة على رؤوس أصحابها.

تحتاج الوقت الطويل كي ترمِّم وتبني، أمَّا ثوانٍ؛ لينتهي كلُّ فعلٍ سعيتَ له، يحتاج الخراب لحظةً، مقارنة بالبناء.

الحلول صعبةٌ، والنتائج لن تكون كما قُدِّم في المعادلة، إذ دخل الوسيط الحراريُّ ليهتك بشرع التفاضل والتكامل، وفق المسألة

الرياضيَّة من جهةٍ، وفي المعادلة الكيميائيَّة من جهةٍ أخرى. هنالك نقصٌ في المحصِّلة!

❖❖❖

هادي...

ابتعدَت مريم وذهبت تجاه الجامعة. وضعتُ يديَّ على وجهي مطأطئ الرأس حامل الخيبة، خيبة الحلم،

جميع الأمور توضِّح أنَّها ليست بخير! فمريم الآن ليست لي، إلَّا إذا حلَّ زلزالٌ فاتكٌ بخاتم إصبعها الذي ليس منِّي.

أفكِّر في قلبي العاصف داخل صدري، فضاقت الدنيا رغم اتساعها. إنَّها المرَّة الأولى التي أحبُّ، المرَّة الأولى لهذا الشعور، المرَّة الأولى لكلِّ شيءٍ، حتَّى في الاختبار، لستُ في خضم عتاب مريم على خطئها، فعلى ما يبدو، أنَّ خسارتَها ستكون أكبر؛ هي الضحيَّة العظمى في قصَّة الحبِّ هذه .

حبيبٌ ليس في المتناول، خطيبٌ مرغمةٌ على التعامل معه، أبٌّ كألدِّ أعداء الوجود، يبحث عمَّا يرضيه وليس ما يرضي ابنته.

سألتُ الله في سرِّي عنك أن تكونِي نصيبي.

كلُّ صلاةٍ ألوذ باسمكِ، على شفاه قلبي وروحي.

أدعو الله سرًّا أن تكونِي زوجتي وحلالي.

تليها الدُرر تخرج من العين، كأنَّ الروح تفارق الجسد .

يا لحبِّكِ يا مريم الذي سكنني!

جميع العالم لا يعنيني، ولا يهمُّني أمره سواكِ؛ عائلتي، حبيبتي، زوجتي، صديقتي، كيف سأكون دونكِ؟

كيف يمرُّ اليوم دون أن تقولي صباح الخير؟

أقرأها دائمًا أحبُّك.

الأحرف مختلفةٌ، لكنَّ المعنى واحدٌ،

ما بين صباح الخير وأحبُّك .

وحدي في الحديقة، والأفكار تتباحثُني، والوجود يسقط من حولي، حالما وجدتُ الخاتم بين يديكِ، أحسسته سجني، وسجَّاني وقاتلي!

حملتُ بعضي وسرت إلى البيت، لم أرَ من حولي؛ فالعقل ليس في الأرجاء؛ إنَّما بعيدًا كلَّ البعد عن الدراسة والعمل والبشر. المصيبة كبـيرةٌ، والروح ضـاقت بهـا الأرض.

الشيء الذي أقوى على فعله الاستقالة من العمل، القرار الذي

أستطيع إقراره، إضافةً إلى العكوف عن الدراسة حتَّى إشعارٍ آخر؛ أمَّا ما تبقَّى، فهو رغمًا عنِّي.

أعددتُ فنجان القهوة، علبة السجائر، وابتدأت مع أفكاري؛ مَا الحل وأين الحل، وإلى متى سيظلُّ الطريق مُهلِكًا؟

يتصل أنس بي؛ ليسأل عن سبب غيابي عن العمل، ولماذا لم يَرَني اليوم بالجامعة، لأجيبه:

- أخبر صاحب العمل عن استقالتي، أمَّا الجامعة، فلم أذهب إليها اليوم.

يكرِّر السؤال بدهشةٍ:

- تستقيل! لماذا؟ والجامعة أيضًا، لماذا لم تذهب إلى الامتحان، ما الخطب؟

- أشياء جمَّةٌ.

ينتظر منِّي تتمَّة الجواب، ولو بالمختصر، لكنَّني بعد الكلمتين تابعت صمتي ليقول :

- حسنًا إذن، أراك مساءً، وسأخبر ربَّ العمل أنَّك متعبٌ

من الامتحان، أراك اليوم؟

- إن شاء الله.

ثم أغلقت الخط؛ لأعود إلى خلوتي.

أقضي الوقت مع سيجارتي، والضجيج يدبُّ داخلي، يسكن الألم الروح، الحُرقة تتخلَّل الجسد صدمةُ قويَّةٌ والاحتمالات كثيرةٌ، غالبيَّتها تدعو إلى سوء الطالع.

خلال هذا الوقت، وهذا الألم، تهاجر المخيِّلة إلى ذكرياتٍ تحمل معاني الدفء، تعبرُ بطريق الجسد هانئةً مخضرَّةً، تُخضِّب ما تبقَّى من مساحةٍ داخل الروح.

تستفيضُ الأمل، وتستقي الرحمة بنهاية الأمر.

بين أيَّامٍ ماضيةٍ مرَّ على مضيِّها القليل، حتَّى فترة العلاقة خلال ثلاثة سنين، أشعر أنَّها دقيقةٌ واحدةٌ، ولا تكفيني مع من أحببت.

صرتُ متمسِّكًا أكثرَ بمريم؛ فكلَّما زادت الصعوبة، زاد مقدار التعلُّق، رغم الفجوة المختلقة حاليًا بحكم خاتم الخطوبة - حتَّى هذه اللحظة على أقل تقدير.

تمضي اللحظة تلو اللحظة، والساعة تلو أختها حتَّى المساء. يعود أنس من العمل، متلهِّفًا خائفًا من بلواي التي أحسُّها، حتَّى أخبرته بما حدث بيننا أنا ومريم من نقاش، وحديثٍ ظهرت علائمه مرهقًا؛ فالمعادلة صعبةٌ، وقضيَّة الاختبار، خلال فكرة أنس للمرَّة التالية التي تقول:

- هذا اختبارٌ للعلاقة بينكما، من خلاله إمَّا أن تكونا معًا حتَّى آخر العمر، أو تكونا ذكرًى خالدةً حتَّى نهاية العمر؛ فالعلاقات مجملًا تمرُّ بمراحل من خلافٍ بين الطرفين؛ نتيجة فعلٍ أو خطأٍ، يباعد بينهما مسافةٌ من الزمن، ليعودا أقوى وأشدَّ حبًّا وتمسُّكًا، أو اختبارٍ صارمٍ يمرُّ بهما؛ ليباعد الرابط من شعور بين الطرفين. هنا يكمن التعقيد؛ فملازمة الصعوبة، هي أنَّ الضغط يستنزف طاقة العلاقة ويقلِّل مداها، إن تلكَّأ طرفٌ من الاحتواء ووضعَ الطرف الآخر كضحيَّةٍ على حدٍّ سواء.

نوعُ من البلاء، يلزمه الحكمة والصبر، الحنوُّ والاحتواء

والعطف، أهميَّات الحبِّ التي تحافظ على مداه؛ لذا يجب عليكَ التخلِّي عن العصبيَّة والغيرة؛ فما تمرُّ به مريم سينعكس على نفسها، وستبدي ردود فعلٍ، فلا تتعجَّل، وتجعل ردَّة الفعل هذه مصيبةً تزيد الجنون جنونًا. عليكَ الاستيعاب والاحتواء والابتعاد، عن الأمور التي تشقُّ ثغرًا بينكما.

ما تعيشه مريم أصعب ممَّا تشعره يا هادي؛ لأنَّها مركز الثقل في جميع الأمور، ففي كلِّ جهةٍ، هناك من يمارس الضغط عليها: أهلها، حسن، أنت، حتَّى الدنيا! محاصرةٌ من جوانبها الأربع، وعليك أن تكون أقلَّ ضغطًا كي تنجذب نحوكَ من تلقاء نفسها، وهذا لا يحتاج الكلام، بل الأفعال؛ فالحبُّ فعلٌ، يحتاج غذاءً للروح كي يقوى على المسير ضدَّ عوائق الطبيعة.

ما نطقتُ بأيِّ كلمةٍ خلال حديثه؛ فما يقوله صديقي، نظرةٌ عميقةٌ لما أمرُّ به. يهمس بالحكمة والموعظة والنصح، بما يتوجَّب عليَّ فعله، لا مجال لمناقشته فيما تكلَّم؛ فكلامه صحيح، وأنا بحالٍ يرثى لها، ضعيفٌ؛ فرصاصة الحبِّ دخلت صدري واستهلكت

قواي.

مخبئي القلم والورقة، اللذان يساعدانني على نسيان الألم، ولو قليلًا. أكتبُ عن الحبِّ بألوانه فأبكي، أكتبُ عن الشوق فأبكي، أكتبُ عن الفراق فأبكي!

شعوري واحدٌ تجاه كلِّ شيءٍ: الحنين. إلى وقتٍ تبقى به مريم دون خاتم، حرَّةً لي.

يستسلم أنس للتعب ليغفو؛ أمَّا أنا، أنبش الذكريات بيننا والأوراق..

❖❖❖

يمرُّ الوقت على مضضٍ، تمرُّ الليال موحشةً. الأحاديث بين زوج العصافير باتت خائنةً، يتوسَّدها برود الصدمة، فحينما يتحدَّثان على موقع التواصل الاجتماعي، وفي سير الحديث، تخبرُ مريم هادي أنَّ حسن يُحادثها. كيف للقلب تحمُّلِ ذلك؟ فيقول هادي في سريرته: إلى متى؟!

مريم تتأخَّر بالردِّ، فيتحوَّر داخل هادي براكين وأعاصير، شهران كاملان على منوال أملٍ ضئيلٍ. تسلَّلت العادة أنَّ القلبَ جُرح، على الأقل قلب هادي، أمَّا لمريم، فما عُدت أعرفها!

حين اللقاء، يبدو على مريم العجلة من أمرها للعودة إلى البيت، وأغلبُ الحديث باتَ عن الدراسة، أمَّا كلام الحبِّ؛ فقد أُهمل ووُضعَ جانبًا، الخَطبُ تغيَّر!

كما يبدو أنَّ الحبَّ ليس كافيًا، التعلُّق ليس سببًا، والتضحية ليست دائمًا الوسيلة، والنتيجة لم تكن كما نتوقَّع.

اليوم الأخير للمادَّة الأخيرة في السنة الخامسة، التي على ما يبدو، أنَّ هادي ومريم يتوجَّب عليهما إعادة هذه السنة، هو يومٌ للذكرى،

التي أزالت الشعرة الواصلة في علاقةٍ دامت لسنوات.

هادي...

الابتسامة لا وقت لها هذا اليوم؛ فهو اليوم الأخير. إصبعُ مريم ما يزال مكبَّلًا بخاتم. الأمور متجهةٌ نحو عقد القران مع حسن، هذه حقيقةٌ لا أنكرها، وواضحةٌ أمامي، كما مريم واضحةٌ. تجلسُ جانبي على المقعد الخشبي، ساكنةً هادئةً، يشوبُ مخيَّلتها تكرار السنة، وتكرار المواجهة التي بيننا، كيف سيكون اللقاء حينما لا تكون لي، ولا أكون لها؟ ينبغي لي صعقُ السكون المنعم على الروح بلفظ الكلمات، واختلاق حديث تجنَّبتهُ لفترةٍ طويلةٍ، حديث حسن؛ فأقول مغيِّرًا التوقُّعات السابقة:

- اشتقت إليكِ.

تُجيب بعلمٍ مفعمٍ بالثقة:

- أعلم!

أنظر إليها وأطلب النظر نحوي، لتستفسر عن السبب الذي يجعلها تنظر نحوي فأقول:

- كأنّكِ ما عدتِ مريم التي أعرفها.

تجيبني بغصَّةٍ مختبئةٍ:

- حتَّى أنا يا هادي لم أعد أعرفني! ليس بيدي حيلةٌ، يبدو أنِّي استسلمت. أتعلم؟ حسن يدخِّن مثلك! لكن ليس كشراهتك في التدخين. هو أبيض الوجه، أمَّا أنت أسمر جذَّاب، أنتَ أجمل بكثيرٍ؛ هو لا يستطيع تحريك شعوري، عكسك أنت! فحينما تتكلَّم على بعد أميالٍ منِّي، وشاشة الهاتف الواصلة بيننا، أشعر أنَّك تراني، تشعر بنبض قلبي بحركات يدي، حتَّى برمشة العين! أمَّا هو، وإن كان جانبي، لا أشعر بوجوده. مستقبله معبَّد أمامه ببياض الياسمين؛ فأباه مهَّد له ذلك، أمَّا أنتَ، لا أظنُّ أنَّك تملك ثمن علبة السجائر القادمة. أتعلم لماذا استسلمت وسلَّمت أمري؟ لأنَّ الحياة هكذا، ولأنَّ المجتمع هكذا. عمري أربعة وعشرون ربيعًا، بعد سنة سأدخل في أبواب العنوسة، أو الأصح أكون داخل بيت العنوسة، وأبي لا

ينظر إلى قلبي أبدًا؛ بل ينظر إلى العقل الذي يضمن حياة أفضل لمستقبلي. لا أستطيع أن أكون عدوَّة أبي، مقابل حربٍ خاسرة يا هادي.

لوهلةٍ من الزمن، صاعقةُ الحقيقة، وجعٌ ينبض به قلبي؛ فكلام مريم لا غبار يشوبَه، لكنَّني أقول مردِّدًا صفعة الحقيقة:

- لا أملك المال اليوم، لكن غدًا، علمه عند الله، لا سيَّما بعد تخرُّجي من الجامعة. صحيحٌ لا أستطيع شراء خاتم الآن، لكنَّني لن أكفَّ عن محاولة شرائه، أو حتَّى سرقته؛ إن اسودَّت الأمور أمامي. لن أوفِّر لكِ مالًا وفيرًا، لكنَّني حتمًا، لن أتوانى عن تقديم الحبِّ الذي يؤسِّس بيتًا يجمعنا معًا. غرفةٌ صغيرةٌ تكفي لي ولكِ، صحنٌ، فرشاة أسنانٍ، كوب شاي، فنجان قهوةٍ ورغيف خبز، يكفينا، رغم أساسيَّتها في الحياة، لكنَّكِ الطاغية على أيِّ أساسٍ لن يكمل بيتي دونك يا مريم، لهذا أرجوكِ يا مريم.

ربَّما كلُّ ما بي خاطئٌ، حتَّى المجتمع الذي أحيا داخله خاطئٌ،

فالعانس ليست التي لم تتزوَّج، العانس هي التي لم تتزوج من تحبُّ؛ لذا أغلب النساء عوانس، وفقيرات أيضًا، بالحظ والنصيب.

ما الذي يساعدني لأقوله؟ لا أظنُّ هناك شيءٌ. الشيء الذي طالما أردته وتمنيته لكِ هي السعادة، أينما تحلُّ رحالكِ، والهناء لكِ، في شتَّى الأمور التي تختارينها، وتفضلينها، حتَّى لو لم أكن ضمنها.

تنظرين إليَّ دامعة العين:

- عن أيِّ سعادةٍ تتحدَّث؟ ألا تعلم أنَّني مجبرةٌ، وأنِّي أحبُّك؛ لكنَّني بعد أيَّامٍ، سأكون على ذمَّة آخر! ليت الحياة بسهولة الحبِّ الذي نحلم به ونتوقَّعه.

بعد الذي قالت تُكمل البكاء. لم أجد كلامًا يواسيها، فالتفت يدي نحو يدها التي سارعت إبعادها عن يدي، وضمها ليدها الأخرى .

حتَّى يدك يا مريم، لم تسمحي لي مسَّها، لماذا؟

- ينبغي ألَّا أكون خائنةً للخاتم الذي بيدي، إلى متى ستظلُّ تحلم يا هادي؟ متى تستيقظ من سبات أنَّنا افترقنا؟ أنا

الحبيبة الضعيفة التي هوت عن حفرة الحبِّ، نحو حفرةٍ أخرى، ولم تنجُ بعد من أيَّة حفرةٍ. كفانا عذابًا لأنفسنا المتعبة، وأملًا زائفًا، الحياة ليست بخير، ولن تكون!

لم أنبس بالكلام قط. سارعت دموع الفراق إلى البوح عن سرِّها، لم تكن تلك الكلمات التي انتظرتها من شفاهكِ يا مريم .

- بهذه البساطة، تطلبين المغادرة، الانسحاب، الابتعاد!
- أرجوكَ، لا أستطيع التحمُّل أكثر، لا حلَّ لدي إلَّا فقدانك، سامحنِي، وتقبُّل مرارة الحقيقة التي أخفيناها.
- أتتلاعبين بي يا مريم؟! الخطوبة من حسن، باتت الآن ليست خطأً اقترفتيه، إنَّما قرارٌ اتخذتيه سابقًا! تراجعتِ عنه لوهلةٍ، ثُمَّ عدتِ إلى صوابه !

تنظرُ إليَّ دامعة العين، زائرة الصوت:

- تتهمني بالكذب والتلاعب يا هادي! أخبرتك كلَّ شيءٍ؛ لأنِّي أحبُّك. وأن أتقبَّل الأمر لا يعني أنِّي لا أحبّك! أنا أنثى ضعيفةٌ، لستُ مثلك لي قراري واستقلالي. يبدو أنَّني

أطلتُ الحديث، يترتَّبُ عليَّ العودة إلى البيت؛ من أجل ترتيبات عقد القران، وتحديد موعد الزفاف. سامحِني يا هادي.

أكملتُ الحديث مع نفسي على المقعد الخشبي، أمَّا مريم، فقد ذهبت.

❖❖❖

قد تظلمني الحياة ألَّا ألتقيك، لكنَّ روحي دائمةٌ في لقياك!

إنَّها المرَّة الألف التي أستدعيكِ بها ولم تأتِ. أبحثُ عنكِ ولا أجد سوى الرائحة الماضية، كلُّ شيءٍ كما يستدعيه الوقت، حاضرًا في غياب.

رائحةُ الدخان المنبعثة بين أصابعي، إنَّها السيجارة الأخيرة من العلبة، مللتُ الانتظار، خسرتُ هذه الحرب أيضًا.

حين تكلَّمنا البارحة، أخبرتني أنَّها المرَّة الأخيرة التي سنلتقي بها، مللت الانتظار!

رائحة الدخان المنبعثة من المكان آخرَ ما أتذكَّر، غفوت أخيرًا بعد ساعات من الوحدة، تركتهم على جنبٍ؛ لأخلو في ذكراكِ.

لا جديد تغيَّر في حياتي، نوع علبة السجائر ذاته، التسريحة ذاتها خاليةٌ من الأعين، التي كسرتها وقتَ جدالٍ بيننا.

كنتِ محتدَّةً، وكنتُ الحطام الذي يعاود التكسر، والجدران التي انقلبت على أرضها. ذهبتِ إلى خطيبكِ مسرعةً؛ تخشين التأخُّر عن الموعد بعد جدالٍ حادٍّ. كنتِ صادقةً في الجواب، حتَّى في نظرة

العين التي تدعو إلى القسوة، لستُ ملكك!

ألحقُ بك، وأمسك يدكِ، تخلعينها قائلةً:

- اتركني! لا أحبِّذ التأخُّر، خطيبي بانتظاري.

لا شيء ملكي يستدعي الكسر، والتحطُّم، سوى النظارة التي جعلتكِ تبتسمين بعفويَّة الوداع. أكملتِ المسير.

حتَّى الجسد ما زال هزيلًا نحيلًا. الذكريات كما هي لم تتبدَّل أيضًا، دائمًا تغتالني كنسمة صيفٍ حارٍّ، تقتلعني من حاضري إليكِ في الغياب.

العتم كما هو، الخيال يساوم الخيال، أنَّنا سنلتقي مرَّةً أخرى، وتخبريني كيف الحال؟ وتتذكَّرينِي؛ فالحبُّ لايموت!

أكاد أجزم في الخلوة أنَّكِ تعانقيني حين اللقاء، وإن لم تكوني على ذمَّتي؛ فأبكي بلا شعورٍ. لن يحدث هذا، ولن يأتي اللقاء!

❖❖❖

الفهرس

الفصل الأول.. 20
الفصل الثاني.. 55
الفصل الثالث 86
الفصل الرابع..134
الفصل الخامس 198

الناشر:

الكتابة تجمعنا للنشر والتوزيع

رقم الهاتف:

01066476589

فيسبوك:

/https://www.facebook.com/Wriiiter

المدير العام:

حسن محمد حسن